www.hiramagazine.com

العدد السابع عشر / السنة الخامسة / (أكتوبر - ديسمبر) ٢٠٠٩



لقد اعتاد الذين نذروا أنفسهم لسلوك طريق السعداء -في الماضي والحاضر- ألاّ يطالهم اليأس والقنوط، وألاّ يهتزوا ولا تأخذهم الحدة والغضب حتى وإن تعرضوا من كل جانب لمشاعر العداء والكره.. فهم يدفعون السيئة بالحسنة فيقومون بذلك بإصلاح جميع السلبيات..

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن ووحدة الحياة

في المقال الرئيس للأستاذ "فتح الله كولن" غذاء مجز للعقل والوجدان لمن يلزم نفسه بالتأمل والتفكير. وهو يرسم طريقاً سهلاً للمعرفة والعمل معاً، والولوج إلى فجاج الفكر بقلب ملؤه الاطمئنان والثقة. فالمؤمن -كما يصفه الأستاذ- قد تعصف به العواصف وتتناوشه المحن والخطوب، وقد يهتز بعض الشيء وقد يترنح، لكنه يظل متماسكاً فلا يسقط أرضاً ولا يركع ذلاً ورعباً. فالألم مهما طال فهو إلى انحسار، أما الخوف فلا يقف عند حد، بل يظل ممتداً في النفس حتى يفرغها من الشهامة والغيرة والشجاعة. ثم إذا اهتزّ المؤمن كان ذلك دليلاً على وفرة الحياة عنده وعلى رهافة شعوره وثقافة حسّه ويقظة ذهنه، لأن ميتي الشعور وغليظي الأحاسيس ومتخشبي الأصلاب، لا يهتزون لشيء لأنهم موتى وإنْ كانوا يمشون على قدمين.

والأستاذ "عماد الدين خليل" يتحفنا بواحدة من مقالاته الجادّة عن "غائية الوجود في الأدب الإسلامي" في تحليل رائع للرؤية الإسلامية لغائية الكون ووحدة الحياة، متخذاً من بعض الصراعات الدرامية التي تدور عليها محاور رواياته ومسرحياته نماذج لتقديم هذه الرؤية الإسلامية. وهو يختم بحثه عن "الدراما الإسلامية" فيقول: "إنها الصراع بين العقل والروح والوجدان والجسد، ولن يقدّر لأحد فيها الخلاص إلا من خلال بذل جهد استثنائي للتحقق بالوفاق. أما الأستاذ "البوشيخي" رجل الفكر الرصين، فإنه يحدثنا عن "مفهوم الحياة في القرآن الكريم". هذا المفهوم الذي كثيراً ما يغيب عن أذهان المسلمين أو يختلط بتصورات فاسدة تفقده جوهره وحقيقته، كما أنه لا ينسى أن يحلل لنا حقيقة الموت في التصور الإيماني، ومراحل الحياة والموت، مؤكداً على المعنى الحقيقي للحياة وكيف يصير هذا المعنى دافعاً إلى إيثار الآخرة، ثم يمضي إلى أكثر من ذلك فيعزو سبب الوهن الذي يعاني منه المسلمون اليوم إلى فساد التصور لمفهوم الحياة كما يصورها القرآن الكريم.

أما الأستاذ "رمضان اليوطي" فيؤكد في مقاله الموسوم "لا سلام مع الظلم ولا إرهاب مع العدل" على أن ما يعاني منه العالم اليوم من اضطرابات وقتول وسفك دماء، يعود بالأساس إلى جملة من المظالم التي يتجرعها ضعاف البشر من الأقوياء المتسلطين، وإلى فقدان "العدل" الذي يورث اليأس. وفضيلة الأستاذ "علي جمعة" يقدم لنا على صفحات "حراء" دراسة قيمة عن لوازم العقل التفسيري للقرآن الكريم، مع استعراض شامل وعميق لآراء جمهرة من كبار المفسرين.

وبعد، فإن "حراء" تعتذر للأساتذة الذين لم يسعفنا ضيق المجال للتنويه بمقالاتهم التي تظل مهمة في تشكيل الإطار العام لهذا العدد من "حراء" والله من وراء القصد. ■

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد السابع عشر – السنة الخامسة (أكتوبر – ديسمبر) ٢٠٠٩

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هاني رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال: +20165523088
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٨٧٩=١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

ـراء
ثقافية فصلية
www.hiramag...

المحتويات

EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saa
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Kısıklı Mahallesi, Meltem Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone:+90(216) 318 60 11 Fax:+90(216) 422 41 4

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920





المؤمن لا يسقط وإن اهتز

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٩)

فتح الله كولن

إن الصورة الحالية للأوضاع صورة مرعبة، ولكنّ تجاوز هذه الأوضاع وتخطيها بالإيمان والأمل والتوجه إلى الله ليس مستحيلاً. فإن سار الإنسان نحو الشمس أو طار فإن ظله سيكون خلفه، ولكن إن أدار ظهره للشمس فإنه يبقى خلف ظله. لذا يجب أن تكون عيوننا مصوبة على الدوام إلى المنبع اللانهائي للضوء. أجل، إن كل شيء كما عبر عنه الشاعر التركي "محمد عاكف" مرتبط بـ"الاستناد إلى الله، والتوسل بالسعي، والاستسلام للحكمة".

ومما لا شك فيه أننا نعيش أزمات حقيقية متداخلة بعضها في بعض، إلا أنه يمكن تجاوزها بمعرفة أسبابها والنضال ضدها بإيمان وعزم وأمل، وإلا فإن الخيال والأوهام ستضخّم صورة هذه المشاكل. كما أن السياسة إن تدخلت فيها واستغلتها فستكبر، وستبدو أكبر بكثير من حجمها الحقيقي، وتصل -نتيجة آثار التخريبات النفسية- إلى وضع يصعب الخروج منه.

نحن نعيش اليوم مرحلة من المراحل التي يتكرر فيها التاريخ بعبره. فقد أحاطت بنا المآسي والمصائب والبلايا من كل جانب؛ كالزلازل والفيضانات والحرائق والضغط على الحريات وكتم الأنفاس... ولكن رغم كل هذه المظالم والبلايا لا زلنا نرى

الساكتين والصامتين المسلوبي الإرادة الخائفين حتى من التأوه أمام المصائب. ومقابل هذا نرى صنفاً من الظالمين، يظلمون الناس ويغدرون بهم، ثم يتظاهرون بالبكاء والشكوى ليقلبوا الحقائق رأساً على عقب ويظهروا المظلومين وكأنهم هم الظالمون. كما أن هناك بعض الكتل الجماهيرية التي نراها -لأسباب مختلفة- غير متوازنة في تصرفاتها، فهي على الدوام غاضبة ومحتدة. وهناك أوساط مختلفة كأوساط الإدارة الفاسدة والأوساط المتحكمة والأوساط المحرضة، والأوساط اللاهية التي لا يهمها شيء، والذين يعدون الخداع مهارة والسرقة شطارة، والانتهازيون الذين لهم نصيب عند هؤلاء، والذين يتحصنون وراء حصاناتهم القانونية، والذين يرفعون شعار "الحق للقوة" ويستخدمونه حتى النهاية، من أئمة الظلم، والمرتشين والآثمين والمختلسين وتجار الأسلحة وشبكات تجارة المخدرات والمدمنين عليها، وتنظيمات ملعونة أخرى لم يعط لها اسم بعد... كل هذه الأوساط تدفع الجماهير الغاضبة التي فقدت اتزانها إلى مزيد من أعمال الشدة والعنف.

أجل، هناك خريف حزين في كل مكان، والقيم الإنسانية سقطت تحت الأقدام. فلا حرمة للفرد، ولا حرمة للقيم الإنسانية. وإذا وُجد هناك بضعة أفراد يتصرفون ببعض الاحترام، فمن أجل الحصول على أجرة وعلى مقابل لهذا الاحترام. والجماهير أصبحت تُعد في كل مكان كتلاً لا قيمة لها، وحالها تفتت الأكباد، في وقت تبذل لها الوعود بالحصول على عمل وعلى لقمة عيش في أوقات الانتخابات فقط. ولكن لم يعد أحد يصدق هذه الوعود لعدم تحققها.. فالعلم لا صاحب له... والمعرفة والعرفان وراء جبل قاف... الفن مجرد حارس للأيدولوجيات... بيوت العلم استسلمت للتقليد... عشق الحقيقة وحب العلم والشوق للبحث أمور لا تستحق الاهتمام والالتفات إليها... أما بعض الجهود المبذولة فربما لا تتعدى نطاق الهواية... مؤسساتنا الحيوية التي أودعْنا فيها حاضرنا ومستقبلنا ميتة ولا حياة فيها... إن استمعتَ إلى الدعايات والادعاءات حسبت أننا نكفي لعوالم عدة، بينما تشير الحقائق صارخة بأننا لا نكفي لمدينة صغيرة. ومن الواضح لكل ذي عينين أن قيمنا الأخلاقية، والشعور بالمسؤولية، والتزامنا بالحق وبالعدل هي دون المستوى العالمي بكثير، فلا تجد عند الكثيرين منا أي حياء أو خجل أو أي احترام للحق ولا أي توقير للفكر... لقد زال منذ زمان بعيد الخشية من الله، وحس الفضيلة... أما الحياء من الناس فنحن الآن نسعى للتخلص من هذا الشعور المزعج(!). لقد تحولنا إلى أكوام بشرية لا قلب لها ولا روح، وانعكس هذا على وجوهنا، فلم يبق عند معظمنا إحساس بالرحمة أوالشفقة، ولا شعورٌ بالاحترام والتوقير. أما عدد الذين يعدون الدين والديانة مؤسسة عتيقة وبالية فلا يستهان بهم... المشاعر الدينية خربة في كل مكان، والتدين مُهان... اللامبالاة منتشرة وكذلك السقوط الأخلاقي... الخيانات متداخلة بعضها مع البعض الآخر في كل جانب، والصرخات والتأوهات تُسمع من هنا وهناك... في هذه الأرواح التي فقدت مشاعرها الإنسانية ترى جموداً في الأحاسيس والعواطف وشللاً... أو معاذير من أمثال "هل أنا المكلف بإنقاذ العالم؟" القلوب الحساسة أصبحت أسيرةَ انفعالاتها وفقدت توازنها... أما عدد الانتهازيين الذين يقولون: "هذا هو يومنا... وهذا هو عهدنا وزماننا" فليس معروفاً... والله تعالى وحده هو الذي يعلم عدد الذين جعلوا الوصول إلى الثروة عن أي طريق هدف حياتهم. في مقابل هذا نرى أن من يفكر ويحس ولو قليلاً يتجرع الآلام من أيدي أصحاب القوة الغاشمة، ونرى أن مصير من يخدم هذه الأمة هو الانسحاق، ومصير من يُخلص لهذه الأمة هو الوقوع في المصايد الشيطانية المنصوبة له في كل منعطف... صحيح أن الساكتين الآن والصامتين لا يصيبهم شيء، ولا يقال لهم شيء، ولكن لا أحد يعرف ماذا سيأتي به الغد.

هناك شرذمة هامشية تثير على الدوام ضجة وجلبة في كل فرصة سانحة لها ضد الإيمان وضد الإسلام. وهي بدرجة عدائها

اليأس عفريت يقطع عليك الطريق، وفكرة العجز وانعدام الحيلة مرض قاتل للروح، والذين برزوا في تاريخنا المجيد برزوا لأنهم ساروا بكل عزم وإيمان. أما الذين تركوا أنفسهم لمشاعر العجز والقنوط فلم يقطعوا أرضاً، بل ضاعوا في الطريق.

للدين وللإيمان تستهين بالرأي الحر والديمقراطية الحقة وحقوق الإنسان، وتعلن الحرب على كل من يخالفها في الرأي وفي الفكر، وتُدين كل من لا يشاركها وجهة نظرها، وتمسّه في عرضه وشرفه بل ربما توسلت إلى التصفية الجسدية لمن لا تستطيع الصمود أمام فكره وحججه، وهناك من بينهم بعض النماذج والأفراد الذين لا يملكون ذرة من شرف الفكر وعفة الروح. ولا يتردد أمثال هؤلاء القيام اليوم بتكذيب ما قالوه في الأمس، وأن يذمّوا غداً ويخسفوا به إلى سابع أرض مَن يصفّق له ويهتف بحياته اليوم. وإذا كانت هناك صفة لصيقة بهؤلاء من ذوي الوجهين فهي أنهم يطفون على السطح دائماً، ويتلذذون بلدغ الآخرين كالثعابين. أما التعصب الكفري الموجود لدى بعض هؤلاء فحدث عنه ولا حرج، فهم لا يؤمنون لا بالله تعالى ولا برسوله ﷺ... قد عميت بصائرهم



فهم لا يرون، وصمّت آذانهم فهم لا يسمعون، لا يملكون روحاً ولا قلباً، ولا عقلاً متدبراً، ولا يحملون وقاراً لا لله ولا لرسوله ﷺ. جهالتهم جهالة مركبة، فهم لا يعلمون، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، ويحسبون أنهم يعلمون.

والخلاصة أننا خائضون اليوم حتى الركب في جميع السلبيات التي كنا نتمنى عدم وجودها، والأنكى من هذا هو عدم وجود أي خبر أو علامة مما كنا نأمل فيه كأمة منذ سنوات عديدة. وعندما يكون هذا هو المنظر العام فمن الصعب الحديث عن الأمل وعن العزيمة. ولكننا كأمة يجب أن نتجاوز هذه الصعاب، إذ لا خيار آخر أمامنا. لأن المصائب التي نواجهها حالياً قد تظهر أمامنا في المستقبل وقد تتضاعف، وعندها ينقلب البلد من أقصاه إلى أقصاه إلى ما يشبه مقبرة جماعية، وقد يُلف عزم الأمة وأملها مثل كفن على رأسها، وتنقلب الأنهار إلى "نهروان" والسهول إلى كربلاء والأعداء إلى "شِمر"[1] والشهور إلى شهرِ محرم. وقد تتتابع المؤامرات الواحدة منها تلو الأخرى، وتحدث حرائق كبيرة فتحرق إلى جانب بيوتنا ومساكننا آمالنا أيضاً وخططنا وتحولها إلى رماد. وقد يتخلى عنا الجميع... أصدقاء كانوا أم أعداء، ونظل وحيدين ومعزولين، بل قد لا يكتفون بهذا، إذ قد نطعن من الخلف من قبل أشخاص لا نتوقع منهم هذه الخيانة. أجل، نحن نعيش في هذه الظروف التي يَطعن فيها الأعداءُ ويجحد فيها الأصدقاء ويتخلون عنا تماما، فعلينا ألا نستسلم أبداً، ولا ننحني، بل نبقى صامدين وواقفين على أرجلنا مستندين في ذلك إلى إيماننا وآمالنا بل مسرعين نطوي المسافات مثل جواد أصيل يغدو حتى النفَس الأخير.

فلو وصلت المصائب والفواجع إلى أضعاف ما هي عليه حالياً، ولو أحاط بنا الأنين والنحيب من كل جانب، ولو بلغ الصراخ عنان السماء... حتى لو تحولت المآسي الحالية إلى حمم بركانية متدفقة نحو القلوب... ولو تلوّت الأمة بأجمعها من الألم ومن اليأس، ورَسمت السيوف أقواساً فوق الرؤوس المفكرة، ولو سُحقت الأدمغة بالمطارق، وانفرد الظالمون وبقوا في الميدان وساد ظلمهم كل مكان، ولو غطى اليأس الأسود أفضل القلوب وأطهرها، ولو انهارت البيوت وتقوضت العوائل وانهدمت... لو غرب القمر وانطفأت الشمس، ولو انغمرت القلوب مع الأبصار في ظلام دامس... ولو طغت القوة وتجبرت... لو انسحق الحق تحت أقدامِ وعجلات القوة الغاشمة... لو كشرت القوى الظالمة عن أنيابها، وانزوى الضعيف في صمت... لو خارت قوى أصحاب القلوب العاجزة عن المقاومة واحداً إثر آخر... لو سقط كل أصحاب القلوب...

لو حدث كل هذا لما كان علينا إلا أن نستمر في موقفنا ونعطيه حقه من الثبات دون أن نغير سلوكنا قيد شعرة... نقف في موضعنا لنكون موضع أمل ومنبع وقوة يلجأ إليها الجميع، ونحاول من جديد إشعال جميع المشاعل الخابية.

إن كان إيماننا بالله تامّاً فلابد أن يكون الأمل والعزم شعارنا، وتقديم الخدمة للأمة مهمتنا. يجب أن يكون توقيرنا للحق تعالى وأن ننذر أنفسنا لإسعاد الآخرين بدرجة أن نفضل أن نُطْعِم قبل أن نَطعَم، وأن نكسو قبل أن نُكسَى فيسعد من يرى أسلوب حياتنا الموقوفة للآخرين، وأمانتنا في أداء الأمانة. يجب أن نعيش طاهرين ونزيهين إلى درجة أن أي حرام أو أي أمر غير مشروع لا يستطيع أن يلوث أحلامنا فضلاً عن حياتنا. ومن يدري كم فقدنا وكم خسرنا، وكم هبطنا من علونا جراء بعض هذه التلوثات. فلا يفلح قط من لا يوفي حق موقعه وينحرف عنه. هذا علماً أننا نعد حب الحياة أو المنافع الشخصية انتحاراً فضلا عن الأهواء الدنيوية، بل علينا ألا نجعل حتى الجنة غاية عبوديتنا، لأن علينا أن نربط قلوبنا بالهبات والأفضال الإلهية والسعي لنيل رضاه، واضعين سدّاً منيعاً أمام رغباتنا وأهوائنا الشخصية. نعطي -دون انتظار أي مقابل- ولا نأخذ، بل نحسن على الدوام. وعندما ننطلق نحو "المحبوب" ونسلك سبيل السعداء لا تخطر أنفسنا على بالنا.

إن كان إيماننا بالله تامّاً، فلابد أن يكون الأمل والعزم شعارنا وتقديم الخدمة للأمة مهمتنا. يجب أن يكون توقيرنا للحق تعالى وأن ننذر أنفسنا لإسعاد الآخرين وأن نعيش طاهرين ونزيهين إلى درجة أن أي حرام أو أمر غير مشروع لا يقدر أن يلوث أحلامنا فضلاً عن حياتنا.

لقد اعتاد الذين نذروا أنفسهم لسلوك طريق السعداء - في الماضي والحاضر- ألاّ يطالهم اليأس والقنوط وألاّ يهتزوا ولا تأخذهم الحدة والغضب حتى وإن تعرضوا من كل جانب لمشاعر العداء والكره، وإن قاسوا من جحود الأصدقاء وشماتة الأعداء، وإن أصبحوا هدفاً لهجوم أصحاب الأرواح المملوءة حقداً ونفوراً... فهم لا يقابلون هذا بشعور مقابل من العداء والكره، بل يدفعون السيئة بالحسنة وبالكلمة الطيبة وبسلوك الإحسان وبالقول اللين فيقومون بذلك بإصلاح جميع السلبيات، ويقابلون الأفكار الهدّامة بحملات البناء... ولو انقلب كل شيء في البلد -لا سمح الله- في يوم من الأيام رأساً على عقب، وانغمرت الجماهير في الظلام، وتقطعت الطرق وتهدمت الجسور فلن يضطرب هؤلاء ولن يهتزوا، لأنهم يرون أن هذا الاضطراب والاهتزاز منهم يعد عدم توقير لعقيدتهم ولإرادتهم. فبدلاً من إظهار دلائلِ ومناظر الموت والخراب في جو من اليأس والقنوط يقومون بتحفيز مشاعر الحياة عند الآخرين وتنشيطها وإثارتها، ويهتفون بكل من يستطيع السير: أن الطريق مفتوح.

إنني أعتقد بأن يد العناية ستمتد حتماً إلى أبطال العزم والعزيمة هؤلاء، إن لم يكن اليوم فغداً... وأن العواصف الهوجاء التي تقطع عليهم الطريق ستهدأ وتسكن، وستذوب الثلوج وتزول، وستتحول السهول والوديان القاحلة حولهم منذ قرون إلى جنان نضرة، وسيبتسم لهم الحظ.

إن اليأس عفريت يقطع عليك الطريق، وفكرة العجز وانعدامِ الحيلة مرض قاتل للروح، والذين برزوا في تاريخنا المجيد برزوا لأنهم ساروا بكل عزم وإيمان. أما الذين تركوا أنفسهم لمشاعر العجز والقنوط فلم يقطعوا أرضاً، ولا ساروا مسافة، بل ضاعوا في الطريق. فمن ماتت عندهم المشاعر والأحاسيس، ومن فقدوا قابلية الحركة لن يقطعوا طريقاً، والنائمون لا يستطيعون الوصول إلى الهدف.

أما الذين فقدوا عزمهم وإرادتهم فلن يستطيعوا البقاء قطعاً على أرجلهم مدة طويلة.

والآن إن كنا نفكر في غدنا، ونأمل في الوصول إلى المستقبل ونحن ننبض بالحركة والحياة، فعلينا ألا ننسى أبداً بأن الطرق تُقطع بالسير، وأن الذرى تبلغ بالعزم والإرادة والتخطيط. إن الذرى التي تبدو مستحيلة الوصول، قد تم الوصول إليها مراراً. وقبّلت القممُ الشاهقة أقدامَ العزم والإرادة وأنارت في أصحابها عزماً جديداً.

والحقيقة أن من عرف طريقه في أي عهد من العهود وعرف الهدف الذي يتوجه إليه، وكان واثقاً من القوة التي يستند إليها استطاع بفضل هذا الشعور وبفضل هذه الديناميكية التي يشعر

بهـا في أعماقه أن يرقى إلى هذه الـذرى ويتجاوزها فيصل إلى الشـاهقة مرات ومرات، وتصغر الأرض تحت أقدامهم، وتَفتح السـماواتُ صدرها لعرفانهم، وتقف لهم المسافاتُ تحيةً وإكباراً وتقف لعزمهم وجهودهم احتراماً، وتتحول العوائق والموانع إلى جسـور تنقلهم إلى أهدافهم. أجل، إن الظلام ينحدر دائماً أمام هؤلاء الشـجعان، وتنقلب المصائب إلى شآبيب رحمة وتتحول المشقات إلى طرق نجاة، والضوائق إلى حوافز انطلاق.

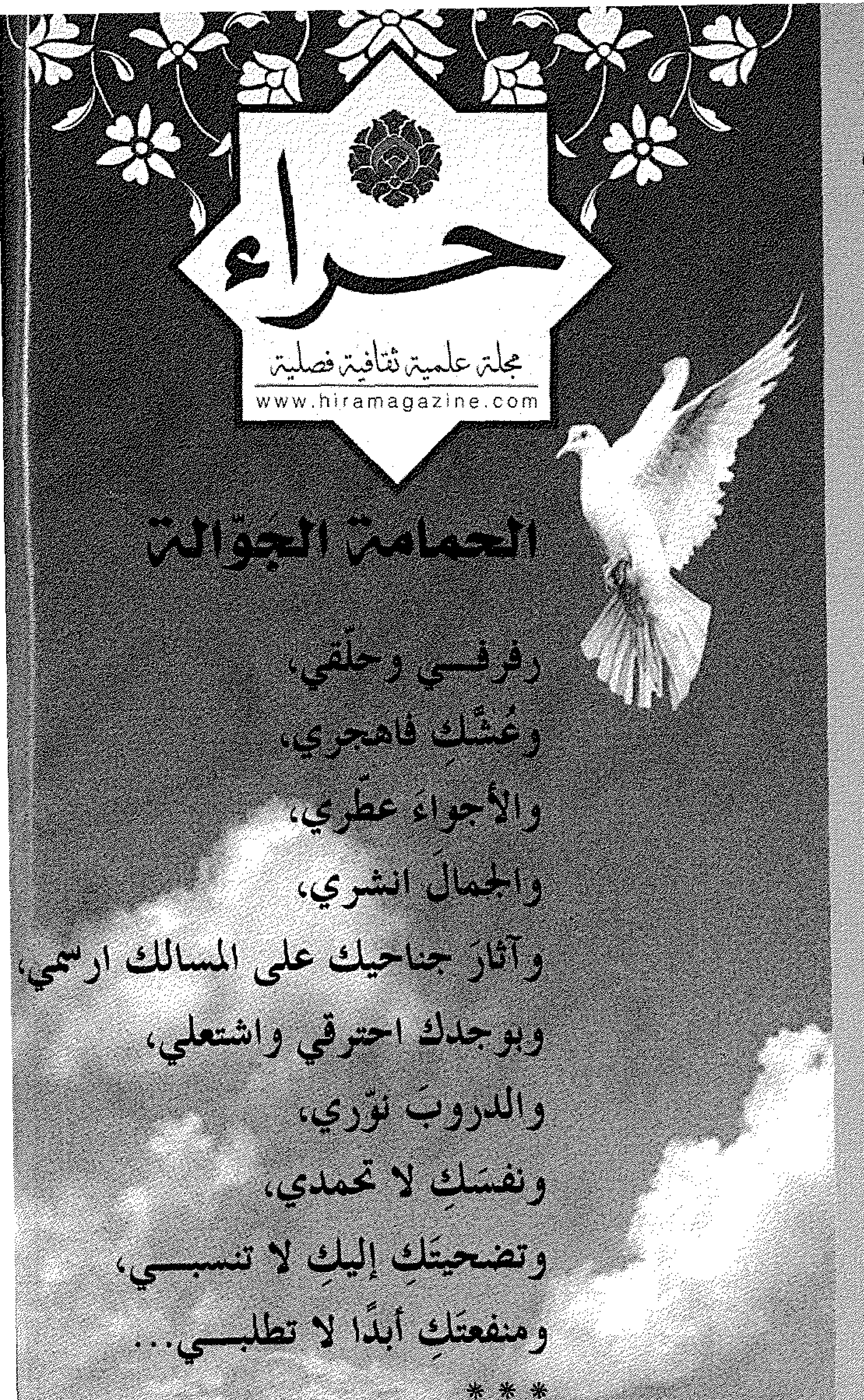
لو أبادوا حاضر مثل هذا الشـخص نـراه يمم وجهه نحو المستقبل ويستمر في طريقه المتوجه إلى الغد. ولو هدموا مستقبله أيضاً لما تردد في نخس جواده نحو مسـتقبل أبعد، أي لا يملكون حيلة حيال أمثاله، ولم يسـتطيعوا هـذا حتى الآن، لأنه حتى لو عاش هزائم، أو سقط على الأرض، فإنه بفضل عزمه وإيمانه وأمله يستمر في وضع خطط جديدة للفوز وللنجاح ويجد فيها السلوى والعزاء. كما أنه عندما يجابه بموجات من الحقد والعداء، وعندما تدلهـم أمامه الخطوب، وتتكاثف الظلمات بعضها فوق بعض لا يسقط في وديان اليأس والقنوط، ولا يضطرب أو تهتز منه شعرة، لأنه لا يمثل الأمسَ فقط ولا اليومَ ولا الغدَ، بل هو في موقع يَسرِي كلامه إلى الأزمنة جميعا فهـو "صاحب الوقت" و"ابن الزمان". يعرف إضافة إلى لغة عصره روح الدين وأسرار القرآن.. كل من يراه ويتلمس شـخصيته يتذكر عصر النبوة والخلفاء الراشدين، وهو بمشـاعره وأفكاره وبعفته ونزاهته وبوفائه وبصدقه وخلقه المتين يبدو كأنه صَرح من الجلمود أو الجرانيت، إن تهدم كل من حوله وانهار، فلا يتفتت ولا يسقط منه مقدار قلامة ظفر واحدة.

نحن نأمل -بفضل هذه الأخلاق العالية والقوية والراسخة- أن تجد الصدور التي تشتكي الغربة والهجران الشفاء والسلوان إن لم يكن اليوم فغداً، وأن تستقيم أصلاب أولئك الذين عاشوا منحني الظهـور منذ عصورِ ظهورَهم، ويهتفوا مؤكدين وجودهم، وأن تحيا الأرواح التي غشيها الظلام وتقوم بتبديد الظلمات التي تحيط بهم وتحاصرهم، وأن يصرف الجميع جهوداً اسـتثنائية ويقوموا -تحت إرشـاد المعاني المركوزة في جذورهم وأعماق نفوسهم- بتجاوز جميع العقبات فيتّحدون مع ذواتهم وماهيتهم ويصلون إلى ذروة الحظ والسعادة. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الهوامش

[1] شِمر بن ذي الجوشن: قاتل سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه. (المترجم)





العلم والإيمان متعة العقل والروح

العطري بن عزوز*

إن الحق ﷻ قد منح الإنسان القدرة على العلم والمعرفة والتمييز بين الأشياء، فخلق له الأدوات التي يتمكن بها من تحصيل العلم واكتسابه. وبعد أن قدر الله للإنسان أن يكون عاقلاً مميزا عالما مختارا ومنحه أدوات العلم والتمييز، أمره أن يسلك سبيل العلم وأن ينتفع بأدوات العلم لديه، وأن لا يتبع أمراً لا علم له به، وأنه سيكون مسؤولاً عن الانحراف. إذ لا عذر لإنسان بعد ذلك إذا سلك طريق الضلال، قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾(القيامة:١٤-١٥). وإذا كان الحق ﷻ هو الذي منحنا السمع والبصر والعقل، أفلا يجدر بهذا الإنسان أن يستخدم هذه الأدوات التي خلقها له ربه في معرفة خالقه ﷻ ورسوله ﷺ قبل أي معرفة أخرى، فيأخذ عقيدته بعلم ويقين حتى يكون من أهل الإيمان الراسخ الذي لا يتزلزل، وليكون من أهل العقول الذين أبصروا بالعلم حقائق الإيمان بالله ورسوله، وبذلك يتذوق ويتمتع حلاوة العلم والإيمان؟!

العلم وصناعة الإنسان المؤمن؟

لقد جعل الله تعالى الطريق للإيمان به وبرسوله يأتي عن طريق العلم وهو الطريق الموثوق للوصول إلى الغاية المقصودة، قال الحق ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(محمد:١٩). إذن فالإيمان هو المنطلق الصحيح لتصرف الإنسان في هذه الحياة، المحقق للسعادة في الدنيا والآخرة. وكل تصرف ينطلق من غير الإيمان لا يثمر إلا الشقاء والخسران. ولهذا علق الله الفلاح والفوز به، وعلق الخسران والشقاء بفقده، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۞

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:١-٣).

فالعلم من أجلّ نعم الله تعالى على الإنسان، حتى أصبح جزء من حياتنا اليومية نحتاجه في أعمالنا، ولا حديث في هذه الأيام إلا على التطورات التكنولوجية. وهنا يطرح السؤال، إلى أي مدى يمكن أن نقدس العلم ونحترمه؟ هل هو مطلوب لذاته؟ وهل هو وسيلة أم غاية؟ إن الناظر إلى واقع الحال سواء في البلاد الغربية أو العربية يجد عجباً؛ الناس يكاد أن يؤلهوا العلم، فتنة بما وصل إليه من تطورات مذهلة، فإن قلت لأحدهم: "يقول الدين كذا وكذا"، يقاطعك قائلا: "دعك من هذا، إن هذا أمر غيبي". وتجد كلاما كثيرا.. أما إذا قلت: "قال العلم كذا وكذا"، فيسكت متقبلا كل الكلام الذي تقوله ويؤمن به إيمانا راسخا لا يتزعزع. فالدين أو الإيمان في نظره غيبي وتخلّف ورجعي، والعلم عنده تطور وحضارة ورقيٌّ. إذن فما الذي حدث؟ إن هذه الفكرة وليدة سلسلة أحداث تاريخية ترجع إلى القرون الوسطى، حيث كانت الكنيسة تحارب العلم، وحدث صراع كبير بين رجال الكنيسة ورجال العلم، وانتصر رجال العلم وكفروا بكل الغيبيات، وكان موقفهم هو معاداة الإيمان، كما انطلقت النهضة العلمية المعاصرة من منطلق مادي صرف معاد لكل معاني الروح، لا يقبل غير المادي.

ونحن نعلم أن الغيبيات في الكون الذي نحن فيه، أكثر من الماديات، ولذلك انغمست هذه الحضارة في الماديات، مع العلم أن هؤلاء الغربيين استخدموا المنهج القرآني -وهو المنهج العلمي التجريبي الذي أسسه علماء الإسلام- ولكنهم سخروه في المادة فقط، فبنوا الإنسان المادي، وغفلوا عن الجانب المهم فيه وهو الروح، ونتج عن ذلك الشقاء والفراغ الروحي وسقوط القيم وتحلل الأسر، وزيادة الأسلحة المدمرة التي تهدد الإنسانية بأكملها. وكل هذا من سمات هذا العصر الذي سمي بعصر التقدم العلمي.

وهكذا أصبح العلم أداة في يد الغربيين لزعزعة الإيمان عن طريق إقناع الشباب بأن العلم وحده كاف للتحضر والتقدم والمدنية ومن ثم الوصول إلى السعادة بعيدا عن قيود الدين. إذن فما مدى صحة هذه الرؤية، فهل صحيح أن العلم وحده كاف لسعادة الإنسان؟

محدودية العقل

ففي قصة موسى عليه السلام دلالة واضحة عن محدودية العقل، حيث برهن القرآن للعقليين بالتجربة الحسية، ضعف العقل. فقد طلب موسى عليه السلام الرؤية، ولما تجلى الله للجبل اهتز وكاد أن يقتلع من جذوره، وأغمي على عقل موسى لأنه لم يستوعب الرؤية. والتعليل واضح وهو أن العقل عاجز عن الوصول إلى كثير من الحقائق، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:١٤٣). وهكذا يبقى العقل دائما عاجزاً عن إدراك حقيقة الأشياء ما لم يستعن بالوحي. فالعلاقة بين العقل والوحي تأتي من خلال التعرف على كيفية تعامل العقل مع الوحي، أي كيف تتعاون مصادر العلم مع بعضها للوصول إلى الحقيقة. وفي بيان هذه العلاقة يقول الدكتور النجار: "إن العقل لكي يقوم بدوره في تفهم الوحي لابد أن يعتمد أسساً تهديه إلى الفهم، وهي أسس راجعة في أغلبها إلى خصائص الوحي ذاته أو إلى خصائص العقل. وانخرامُ أحد الأسس يؤدي إلى خلل في الفهم، وبالتالي إلى الانحراف في فهم المراد الإلهي".[1]

والقرآن لم يجئ ليعلمنا العلوم، بل جاء ليحث العقول على تعلم العلوم والنظر في الكون والإنسان لتنكشف الأسرار الغامضة، على أن يتعاون الوحي مع العقل في استقراء الحقائق من الكتابين. فالقرآن كلام الله وكتابه المسطور، والكون خلق الله وكتابه المنظور، والحقيقة مبثوثة فيهما.

الإدمان على المعرفة والعلم

بقيت مسألة مهمة وهي لماذا بعض الناس دون غيرهم، لديهم هوس بالعلم والإيمان وشغف بالتعمق فيهما؟ في حين نجد الأغلب ينفرون منهما ويركنون إلى حياة الخمول والجهل. طبعاً الجواب مستمد من الملاحظة واستقراء الحال، وهو أن من تعوّد على البحث والقراءة والتعلم وحل المسائل والتفكر في مخلوقات الله تعالى المبثوثة في هذا الكون، يجد في نفسه متعة وراحة يعجز اللسان عن التعبير عنها، لأنه أمسى مدمنا على المعرفة، يحس بحلاوة الإيمان ويتمتع بالبحث العلمي. علماء الأعصاب قدموا لنا تفسيراً منطقياً وسهلاً لتأكيد أن ثمة متعة حقيقية تجتاح الدماغ، ويُحس بها الإنسان عندما يلتقط المعلومة أو يفهم شيئاً جديداً. وأيضاً قدموا لنا الآلية التي يتم بها نشوء المتعة في الدماغ، وشبهوا

الأمر بالإدمان على الأفيون. ولذا فإن مدمني الأفيون لا يحتاجون هذه المادة من الدماغ، ويغدون أشخاصاً كسولين وخاملين علمياً. أما تعليل الإدمان على المعرفة فقد وصف العلماء الإدمان بلغة بسيطة، وهو الاعتماد على شيء معين كمصدر للحصول على اللذة أياً كان نوعها. ولا تنشأ الحالة إلا لدى من تكرر استخدامه لهذا المصدر، وتعودت نفسه عليه وأحس بالفرق حين حرمانه منه، وهو ما ينطبق على علاقة الدماغ بالمعرفة.

الباحثون من جامعة جنوبي كاليفورنيا يقولون: "إن الدماغ يأخذ مكافأة ذاتية عند التقاطه معلومة جديدة أو حله لمسألة ذهنية صعبة. والمكافأة هذه عبارة عن جرعة من مادة الأفيون تعمل على البدء بسلسلة من التفاعلات الكيميائية السريعة، وتنتج في نهاية الأمر دفقة من مادة طبيعية شبيهة في مفعولها على الدماغ بالأفيون"، وذلك على حد قول بروفسور العلوم العصبية بجامعة جنوبي كاليفورنيا، الدكتور "إيرفنغ بيدرمان" الذي وضع فرضيته الجديدة في نتائج البحث المنشور في العدد الأخير من مجلة: "العلماء الأمريكيون".

ويوضح قائلاً: "حينما يحاول أحدنا فهم نظرية أو معلومة صعبة، فالأمر غالباً شاق وليس مجرد مرح، لكن بمجرد فهمها والتقاط تلك المعلومة بشكل سليم، ينتاب الإنسانَ شعور عارم بالرضا والسعادة". لذا فحاجة دماغ الواحد منّا إلى ما يعيد الهدوء والسكينة إليه أو ما نصفه بالعامية "فلان يحتاج أن يعدل دماغه" هي الدافع للناس كي يرفعوا إلى أقصى حد من قدرات الاستيعاب الذهني لديهم للمعلومات والمعرفة. ويعلق البروفسور بيدرمان قائلاً: "مزاجنا الذهني مفتون بتجميع المعرفة في كل ثانية كما هو حال تجار القطع الأثرية في الحرص على اقتناء القديم والقيم منها".

الإدمان العلمي والإدراك الذكائي

وفرضية "بيدرمان" حول الإدمان المعرفي والعلمي لها قيمة تطورية قوية، ومرتبطة جداً بمستوى الإدراك الذكائي، ويحتاج الأمر إلى عناصر ضاغطة بشكل قوي، كالجوع مثلاً، كي يُؤجل الدماغ رغبته في البحث عن المعرفة. وعلى حد قوله فإن نفس الأمر ينطبق على تقدير الجمال الفني البصري والمتعة في التفاعل معه.

أساس الفرضية وفرضية البروفسور "بيدرمان" مستوحاة من نتائج بحث تم إهماله منذ ربع قرن حول مستقبِلات المواد الأفيونية الطبيعية في خلايا الدماغ، أي نقاط جدار الخلية الدماغية التي تشبك وتعلق عليها مواد اللذة هذه، لتقوم حينها يبعث الشعور باللذة في الخلايا الدماغية. وهذه المستقبلات تكثر في الخلايا الدماغية لمنطقة "حزمة أعصاب الطريق البصري الجوفي"، وهي جزء من الدماغ معني بملاحظة وتحليل الصور وترجمة معانيها للذهن وفق آليات غاية في التعقيد. والمستقبلات هذه مجمعة ومركزة بشدة في خلايا الحزمة العصبية في المناطق المعنية بفهمِ وإدراكِ معاني الصور المرسومة أو المكتوبة. ولا توجد في المناطق المعنية باستقبال الدماغ للصور المرئية في أول الأمر، أي إنها توجد في مناطق تعمل في مراحل متقدمة من عملية التحليل الذهني لمعاني الصور المشاهَدةِ وتحديد مدلولاتها، فلا يُثيرها إلا ما يستدعي التحليل والفهم وليس مجرد الاستقبال الأوّلي المبدئي. ولذا فالباحثون يقولون: "كلما كثر النشاط العصبي في أثناء الجهد للتحليل والفهم في المنطقة الغنية بمستقبلات الأفيون، كان الشعور باللذة أعظم عند نجاحها في الوصول إلى الفهم وحل الغموض".

وفي سلسلة من صور متفرقة لمناطق متنوعة من الدماغ بالرنين المغنطيسي لمتطوعين عُرضت عليهم أنواع عدة من الصور، فوَجد فريق البروفسور "بيدرمان" أنهم فضلوا بشدة الصورَ التي أثارتهم بشكل ملفت لتحليلها وفهمها، وزادت من نشاط الإفراز في المناطق الغنية بمستقبِلات الأفيون، كما لاحظ البروفسور "بيدرمان" أن تكرار عرض الصور الجذابة للشخص في البداية يُؤدي إلى تدن تدريجي في إثارة مناطق إفراز المواد الشبيهة بالأفيون مع تكرار العرض، وبالتالي قلة إفراز المواد الكيميائية الباعثة على الشعور باللذة من فهمها.

إذن، فقراءة الكتب والإقبال على العلم والمعرفة تعني مزيدا من الإيمان، ومن ثم تتأكد متعة العقل والروح حيث يشعر الإنسان بحلاوة الإيمان، وهذا هو السر في مقولة المغني الإنجليزي الشهير الذي أسلم وسمي بـ"يوسف إسلام" حينما سئل عن شعوره بعد إسلامه فقال: "يعجز اللسان عن وصف السعادة التي تغمرني والتي طالما بحثت عنها في جميع الأديان". ■

(*) باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

الهوامش

(1) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، لعبد المجيد النجار، ص:٩٦.

نفسي نسيتُ.. وفانيا بالمعشوق فنيتُ.. رضاك أريد..وذوبانا في حبك أذوب.. غيرك لا أبتغي.. وسواك في العالمين لا أنشد.. يا بؤس الإنسانية إذا خيالها به لا يفتن.. وشوقها إليه لا يزجى..

***

غائية الوجود في الأدب الإسلامي



أ.د. عماد الدين خليل*

تحدثنا في حلقتين سابقتين[1] عن انعكاس المضمون الفكري للأدب الإسلامي على بنيته الفنية فيما يجعل من "الإسلامية" مذهباً في الأدب يتميز عن المذاهب الأخرى، ليس في مضامينه حسب، وإنما في تكوينه الفني، ويسقط بالتالي مقولة البعض بأن الأدب الإسلامي أدب معياري، وهي الإشكالية التي ناقشناها في كتاب "الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي"[2] في موضوع "الأدب الإسلامي بين المعيار والمنهج".

في الحلقتين السابقتين تبيّن كم أن الرؤية الإسلامية لقضية القدر تقدّم فناً مسرحياً مغايراً في شكله ومضمونه للتراجيديا اليونانية، وكم أن الرؤية الإسلامية "للواقع" بأكثر مفاهيمه عمقاً واتساعاً، تشكل أدباً يتميز في بنيته الفنية عن سائر الواقعيات الأخرى.

وفي هذه الحلقة سنقف وبالإيجاز المطلوب، عند مسألة ثالثة وهي التصوّر الإسلامي للكون، ولغائية الوجود، وانعكاسها على الخصائص الفنية للأدب الإسلامي؛ تماماً كما أفرزت هناك -في الساحة الغربية- مذهبها "الطليعي" الذي يسمى صدقاً "بالعبثي" أو "اللامعقول".

الطليعية ودكتاتورية العقل

تنطوي "الطليعية" على رؤية قاتمة تقوم على الاعتقاد بفوضوية الكون وعبث الحياة، ولاجدوى الكدح البشري. ومنذ البدء نجد أنفسنا بإزاء موقف تصوّري نقيض بالكلية لموقف "الإسلامية" القائم على الترابط الكوني، وغائية الحياة، وجدوى الكدح البشري، وعدالة المصير.

والكتاب العبثيون يشتركون جميعاً في الإلحاح على الفوضى التي تلف أقطار الكون الأربعة.. على الجنون الذي يضمّ العالم بين جوانحه.. على اللامعقولية التي تربط بين الإنسان والكون.

إن هؤلاء الكتاب قد غدوا، في النصف الثاني من القرن الماضي، مدرسة متميزة تقوم أوّل ما تقوم على القواعد التي يتفق عليها هؤلاء الكتاب جميعاً وهي الفوضى والعبث واللامعقول، تلك التي وضع "ألبير كامي" حجرها الأساس.

يذكر "ريتشارد كو" في كتابه عن "يونسكو" كيف "أن كل النزعات التي كبحتها دكتاتورية العقل خلال قرنين من الزمان اندفعت على السطح، وشهد النصف الأول من قرننا العشرين، عدة حركات ثورية كالتكعيبية والمستقبلية والسريالية والتعبيرية والدادائية والوجودية، وكلها حركات تسعى بطرائقها



الخاصـــة إلى إلقاء الضوء على موقف الروح الإنســـاني في كون غاب عنـــه المنطق. وعندما يختفي المنطـــق تختفي أيضاً مبررات الوجود. وهكذا نرى أن "يونسكو" -مثل كامي وسارتر- يرى في وجودنـــا حقيقة لا هي بالمنطقية ولا هي بالمبررة، إنها حقيقة، ولكنها حقيقة عبثية، فالوجود الذي لا يبرّره منطق عبث".(٣)

ويمضي "ريتشارد كو" يبين كيف سعى الطليعيون إلى إلغاء النظرة القديمة "الكلاسيكية" إلى قواعد الكون الأساسية: الزمان والمكان ووحدة الشخصية، وكيف أنهم كتبوا "دراما الساعات المكسورة" بمعنى أن أبطالهم يعيشـــون في عالم توقفت ساعاته، وحين يفقد الإنســـان الشـــعور بالزمن، تصبح "السن" كلمة لا معـــنى لها، وما دمنا قد محونا الزمن فقد محونا "تراكم التجارب" التي يأتي بها الزمن، وعلى ذلك فلا معنى للقول بأن الشـــيخوخة مثلاً تأتي بالحكمة. وقوانين المكان -من ناحية أخرى- لا معنى لها، فهي تعسّـــفية، وغياب التتابع المنطقي يستلزم غياب وحدة الشـــخصية، فليست الشخصية سلسلة متصلة من الصفات كما يزعم الكلاســـيكيون، وإنما هي حالات دائبة التغيّر يتبع بعضها بعضـــاً، وما يقوله "أ" يمكن ببســـاطة أن يقولـــه "ب" دون أن ينجـــم عن ذلك ضرر كبير. إن "الأنا" ما هي إلاّ انعكاس للعالم الخارجي، أو قل: إن العالم الصغير هو صورة مصغرة مثالية للعالم الكبير. ففوضى الأوّل وتشتته تتبدى في الثاني على نطاق واسع وليس هناك خط واضح يفصل بين الاثنين".(٤)

ويبين "يونســـكو" -بعبـــارة واضحة- تهافت الشـــخصية الإنســـانية، لأنها ليست -بعد أن تكتشـــف عبث العالم- سوى قطعة من ملايين القطع التي يعبث بها الكون: "إن كل شخصياتي على خصام مع الدنيا.. لقد غمرهم القلق التاريخي الذي يســـود العالم وتورطوا فيه".. "إنه عالم رهيب -يقول يونسكو- إلاّ أنه عالم لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجدّ، فهو يوشـــك لفرط سخفه أن يكـــون مضحكاً". ومن ثم فإن رؤيـــة الطليعيين هذه للعبث لم تتح لهم أن يطمئنوا للشـــكل المسرحي العقلي "الأرسططالي" أداة للتعبير. فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدّد الشـــكل، لذا تمرد يونســـكو ورفاقه على الواقعية المسرحية ورفضوا الواقع المنقوص الذي تصدر عنه وتصوره وتفرضه اعتسافاً، وانصرفوا إلى عرض ما كان يتراءى لحسّهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل، بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض.(٥)



الإحساس بالزوال في عالم بلا فضاء

والطليعيون يخنقهم "إحساس بالزوال، في عالم بلا فضاء من الضوء واللون.. إحساس يبدو الوجودُ من خلاله عديم الجدوى، مستحيلاً، بلا مغزى.. وتلك هي ذروة الوعي بالعبث، حيث يتكشف العالم كخيال موهوم، بعيد عن الاحتمال والتصديق، ويبدو الواقع واللغة فيه كما لو كانا يتفككان ويتهاويان قِطَعاً متناثرة، ويفرغان من كل معنى، بحيث يبدو في النهاية أنه ما دام كل شيء قد تجرّد من الأهمية، فما الذي يسع المرء أن يفعله إلاّ أن يضحك من كل شيء؟".(٦)

وللطليعيين موقف من الموت.. كلنا نعرف كيف أن "كامي" اعتبره السبب الرئيسي في تجريد الحياة من المعنى: "ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى"، وارتكن إليه في القول بعبثية العالم، إذ لو كان العالم مجدياً "فلماذا يموت الناس وهم ليسوا سعداء؟".

إن"يونسكو" رائداللامعقول، يقف -كبقية رفاقه- أمام الموت يتأمله، وتشيع هذه الوقفة في فنّه، على الأخص في "قاتل بلا أجر" و"الملك يحتضر"، كما تشيع في "الأيام السعيدة" لصموئيل بكت "إن الموت يثير الرعب لا لأنه واقعة فظيعة في حدّ ذاتها، بل لأنه يجعل كل الحياة التي سبقته عبثاً وسخفاً، فضلاً عن أنه في حدّ ذاته لا معنى له.." يقول يونسكو: "لقد خلقنا كي نكون خالدين ومع ذلك نموت. الأمر مخيف ولا يمكن أن يحمل محمل الجد".(٧)

العبثيون واللامعقولية بين الإنسان والكون

ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم يراه "كابوساً لا يطاق، وشبه حلم مخيف.. عالم يبدو أنه في قبضة حمى رهيبة.. ألا نكون محقين إذا ما أحسسنا أن هذا العالم ليس لنا، إنه ليس عالمنا الحق؟ ما الذي يستطيعه الفنان إزاء عالم كهذا إلا أن يمزق قناع اللاواقع من حوله، قناع المظاهر الذي يصطنع للعالم منطقاً، ويدعي له عقلاً، بالرغم من كل ما يطالع العالم الإنسان به من لا عقل ولا منطق ولا قواعد؟".(٨)

وعند "صموئيل بكت" أن الإنسان "أشرف ما في الكون، والذي ينير حقيقته ليس هو الكون، لأن الكون أبكم أعمى لا ينطق ولا يبين ولا يدري من أمره شيئاً، وإنما يجد الإنسان في داخل نفسه ما يضيء له حقيقة نفسه". وتلك هي خلاصة فلسفة "بكت" التي يدين بها لإمام الوجودية المسيحية "بسكال". فعند الأخير إن الإنسان، وإن يكن نبتاً ضعيفاً، إلا أنه نبت مفكر. وإن الكون إن أهلك الإنسان، فإن الإنسان يكون أشرف ممن يهلكه، لأن الإنسان يعلم أنه يموت، أما الكون فلا يدري ماذا يفعل".(٩)

الرؤية الإسلامية تؤكد على غائية الكون وجدية الحياة، وجدوى الكدح البشري، والعلائق المنطقية التي تربط بين الإنسان والكون، وتقدير قيمة "العقل" واحترام القواعد الأساسية للوجود: الزمان والمكان ووحدة الشخصية، والمعنى الذي يسيّر الكون.

تلك هي -بإيجاز شديد- الخطوط العريضة للرؤية الطليعية التي مارست دورها الملحوظ في بناهم الفنية: فوضى تعم الكون والعالم، ولا تدع لحركة الإنسان فيهما هدفاً محدداً أو مصيراً معلوماً.. كون أنشأته الصدفة العمياء.. وعالم لا يقوم على قاعدة من العقل. وإذا كان الناس طيلة تاريخهم قد اتفقوا على مواضعات وأخلاق وقيم وتقاليد فما ذلك إلا لأنهم مجانين أو عميان، لم يروا بوضوح عبث الكون أو يعقلوا سخف العالم. إذ أنى لهم أن يصطلحوا على ما هو ثابت في حياتهم، وليس هناك شيء يمتلك عناصر الثبات لا الزمان ولا المكان ولا وحدة الشخصية أو اللغة أو العادات والأعراف والتقاليد؟ ثم إن العقل الأكبر الذي ظنوا أنه يسير الكون ثبت انتفاؤه إزاء العبث الطاغي الذي يلف الكون ولا يدع لشيء فيه أن يقرّ له قرار.

هذا هـو -إذن- المضمون الفكري للعبثيـة، وهو في كل مفرداته يشـكل معادلاته الفنية التي تجعل منـه، -بإضافتها إلى خلفياتها التصوّرية- مذهباً في الأدب:

فوضوية الكون وعبـث الحياة، ولاجدوى الكدح البشـري، واللامعقوليـة التي تربط بين الإنسـان والكـون، والتمرد على "دكتاتوريـة العقـل"، وربما إقصـاؤه وإلغاء النظـرة العتيقة "الكلاسيكية" لقواعد الكون الأساسية: الزمان والمكان ووحدة الشخصية، وتفكك هذه الشخصية.. القلق التاريخي الذي يسود الدنيا.. السخف واللامعنى اللذان يمسكان برقبة العالم.. الإحساس بالزوال في عـالم بلا فضاء من الضوء واللـون.. اللغة المفككة المفرغة من أي معنى.. الموت الذي يلغي مغزى الوجود البشري.. الأحلام والكوابيس باعتبارهما تكثيفاً لمأزق الإنسـان ورعبه.. غياب الأمـل في التصالح مع الكون.. وسـخف ادّعاء اليقين.

هذا كلـه ينعكس على أدب العبثيين، لغة وحبكة وسـرداً وحواراً ومنولوجات وفضاء وشـخوصاً.. وعلى سـبيل المثال لم تُتح لهم رؤيتهم للعبث أن يطمئنوا للشـكل المسرحي العقلي "الأرسـططالي" أداة للتعبير. فالمضمون في العمل الفني هو الذي يحدّد الشكل. لذا تمرد "يونسكو" ورفاقه على الواقعية المسرحية، ورفضوا ما اعتقدوه واقعاً منقوصاً تصدر عنه وتصوّره وتفرضه اعتسـافاً، وانصرفوا إلى عرض ما كان يتراءى لحسّـهم الفني ووعيهم الإنساني كواقع شامل بكل ما فيه من مأساة ومن مهزلة، وكل ما فيه من عبث وخواء وتناقض.

غائية الكون والرؤية الإسلامية

الرؤية الإسـلامية تبحـر باتجاه معاكس تمامـاً، حيث التأكيد علـى غائية الكون، وجدية الحياة، وجدوى الكدح البشـري، والعلائق المنطقية التي تربط بين الإنسـان والكون، وتقدير قيمة "العقل" واحترام القواعد الأساسـية للوجـود: الزمان والمكان ووحدة الشـخصية، والاعتقاد العميق بالمعنى الذي يسيّر العالم.. والإحساس بالصيرورة والدوام والامتداد، وبقدرة اللغة اللامتناهية على التواصـل.. والاعتقاد بأن الموت تأكيد لمغزى الحياة وليس نفياً له.. والأمل الدائم بالتحقق بالوفاق والتصالح مع الكون.. ثم اليقين العميق الموغل حتى النخاع بقصدية الوجود البشري على الأرض ووظيفته الكبرى.

هـذه كلها تنعكس بالضرورة على فنية الأداء أو أسـلوبيته الإبداعية، وعبر الأجناس الأدبية كافة، تماماً كما انعكست هناك سلباً، ها هي ذي تنعكس ها هنا إيجاباً في الحبكة والسرد واللغة والحوار والمنولوج والشـخوص والفضاء، وسائر المفردات الفنية التي تعين على بناء العمل الإبداعي.

والآن، فإننا لو جئنا إلى ما تلقته مكتبة الأدب الإسلامي من أعمال مسرحية وقصصية وروائية، فإننا ومنذ الوهلة الأولى سنلتقي بناءً فنياً يختلف في مواصفاته الأسلوبية عما قدّمه العبثيون.

وبقدر تجربتي المتواضعة في المسرح والرواية فإنني حاولت ما وسـعني الجهد أن أقدّم المعادلات الفنية للمضامين الفكرية. وقد وقفـت قليلاً في الحلقة الأولى من هذه المقالات عند مسـرحية "المأسـورون" وبنيتها الفنية المغايرة للتراجيديا اليونانية التي امتد تأثيرها إلى المسرح الغربي المعاصر.

رواية "السيف والكلمة"

وأريـد في هذه الحلقـة أن أقف عند روايتي الأخيرة "السـيف والكلمة" للتأشـير على مفاصلها الفنية الأساسـية التي تناقض معطيات العبثيين، رغم أنها ترفض التشـنج على التقاليد القديمة للجنس الروائي، وتمارس قدراً ملحوظاً من التجريب، لكن العبرة في المغزى الأخير. والمغزى الأخير يقـدم للقارئ معادلات فنية مغايرة إلى حدّ كبير لمعادلات العبثيين.

كانت "الإعصـار والمئذنة" خطوة علـى الطريق، ومعظم الكتاب -كما يؤكد "كولن ولسـون"- "يتعلمون من روايتهم الأولى أكثر مما يتعلمونه من أية رواية أخرى".(١٠)

أما هذه فإنني حاولت فيها -ما وسعني الجهد- أن أنجز عملاً يضيف قيماً فنية جديدة، وأركز على العبارة الأخيرة، لأن الأدباء الإسـلاميين بحاجة إلى هذه.. إلى الإضافـة الفنية التي لا يوليها الكثيرون منهم -للأسف- الاهتمام الكافي.



توظيف التقنيات في عمل فني إسلامي

تحاول الرواية توظيف الغزو المغولي لبغداد من خلال تنامي الحدث عبر أربعة أصوات، وبضمائر متغايرة يغيب فيها الراوي تماماً (والذي تختبئ خلفه في معظم الأحيان اقتحامات فجة للروائي نفسه كما فعلت في الإعصار والمئذنة)، وذلك في محاولة لتنفيذ معمار أكثر حداثة في العمل الروائي الإسلامي.

لقد تم كسر حاجز الزمن وتسلسله الرتيب، كما يحدث في بعض أعمال الحداثة الروائية في الغرب، إنه حاضر في نسيج السرد، وليس من الضروري أن يكون هذا الحضور كعقرب الساعة الذي يدور على نفسه ويظل يدور. إن الزمن الروائي في "السيف والكلمة" يماثل سيرورة الزمن الموضوعي في شكل تتابع أفقي "وهذا لم يمنع من رجوع السرد إلى الماضي، فهناك انقطاعات عديدة في سيرورة السرد المستقيم. والرجوع إلى الماضي جاء وفق نسق مزدوج، فهو إما في شكل ذكريات يستعرضها بعض الأبطال، أو يتولون استحضارها لتفسير سلوكهم".(١١)

توظيف الرموز

الرمز وُظِّفَ هو الآخر في "السيف والكلمة"، ليس رمزاً تجريدياً على أية حال، ولكنه مكسّو لحماً ودماً. إن الأبطال المحوريين الأربعة في الرواية هم في حقيقتهم رموز مجسدة لقوى الإنسان في مجابهة المصير. شخوص تعيش الحياة وتنبض بالهم والوجع، وتأكل وتتنفس وتصارع وتحلم وتتعثر وتقوم العقل والروح والوجدان. كلهم يؤول إلى الضياع في نهاية الأمر، لأن الموقف الأحادي قبالة المصير محكوم عليه بالهزيمة، ليس بصيغة مجابهة غير متكافئة على الإطلاق، يتحكم فيها القدر بخناق الإنسان ويسحقه، كما هو الحال في التراجيديات اليونانية "الكلاسيكية"، ولكن بصيغة اختيار قد يكون خاطئاً، وعلى صاحبه -من ثم- أن يتحمل نتائج عمله.

هذا المنظور الفني الصرف يعكس معادلاً موضوعاً إسلامياً: حرية الإنسان، والعدل الإلهي المطلق الذي يرتّب الأسباب على المسببات. إننا بأمس الحاجة إلى قيم فنية تعكس حالتنا الإسلامية بكل مفرداتها وحلقاتها.. تعكسها جمالياً، وليس عبر مقولات العقل الخالص، وهذه هي مهمة الأدب. ومن هنا يمكن للمرء أن يُدِين العديد من الأدباء الإسلاميين الذين لا يُولُون اهتمامهم للجانب الفني، ويرمون بثقلهم صوب المضمون. إنهم في هذه الحالة لا يكادون يفعلون شيئاً إذا أردنا أن نحاكمهم إلى مطالب النوع الأدبي وليس إلى الخطابة أو التاريخ أو الإعلام.

مهما يكن من أمر فإن الذي ينتصر في "السيف والكلمة" هو واحد فقط من بين أربعة شخوص طوتهم المجابهة الصعبة. لماذا؟ لأنه استطاع أن يتجاوز أسر الأحادية وأن يتحقق إنسانياً وفق مطالب الشخصانية الإسلامية التي نادى بها هذا الدين.

مرة أخرى يحدث هذا من خلال نبض البطل ومعاناته وتعامله مع الموجودات والخبرات والأشياء والمرئيات، وليس من خلال تجريد ذهني صرف.

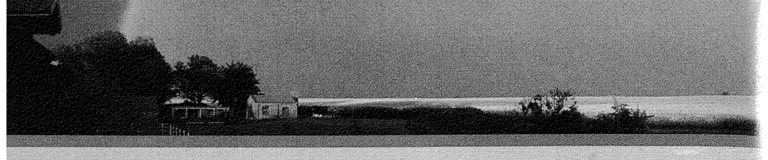
توظيف الجغرافية والتاريخ

حاولت أيضاً أن أوظف الجغرافيا والتاريخ قدر ما أطيق.. لقد درست بإمعان جغرافيةَ بغداد بأحيائها ودروبها وجسورها وأسواقها ومدارسها وملاعبها وحوانيتها... إلخ. درست أيضاً تاريخ بغداد لحظة الغزو المغولي.. عادات الناس وتقاليدهم وطبائعهم وأزياءهم وطعامهم وشرابهم.. جدّهم وهزلهم.. خفقاتهم الاجتماعي هنا وهناك.. لم أرد -طبعاً- أن أكتب عن تاريخ بغداد وجغرافيتها، ولكن جعل الفضاء الروائي أكثر صدقاً فنياً. كان علي أن أعرف حتى مقالات المتصوفة، يومها، وتقاليد العلماء والطلبة والدارسين.

استعرت من "الآخر" بعض الخبرات الفنية. ولم لا؟ ما دام الهدف هو توظيف التقنيات لإنضاج عمل فني يطمح أن يكون إسلامياً؟ ويمكن أن أشير هنا إلى واحدة من تلك الخبرات: ضمير الشخص الثاني الذي اعتمده الأديب الفرنسي المعاصر "ميشيل بوتور" والذي يقول عنه إنه يؤدي دوراً سحرياً، وإنه يدعو القارئ إلى المشاركة بنشاط في حركة القصة.

الصراع بين العقل والروح

الحق أنني وجدت في هذا الضمير ليس تنويعاً فحسب لضمائر



الشـــخوص في "السـيـف والكلمة"، ولكنه -فضلاً عن ذلك- فرصة مناسبة تماماً للمناخ الدرامي والمتوتّر والسريع الذي كانت الشخصيات الأساسية تعيشه.

سأضرب مثلاً واحداً فحسب.. منولوج يديره الأب بصيغة الضمير المذكور:

"ذهبت إلى الكيلاني على استحياء والشوق يدفعك.. أشياء كثيرة أردت أن تفضي بها إليه.. قلبك الذي وسـع بغداد كلّها ينـوء اليوم بهموم بغداد.. ليس هيّناً أن ترى أصدقاءك وإخوانك يقتّلون أو يرحلون.. ليس هيّناً أن تجتاز سوق الكتب فلا تجد فيه شيئاً.. لا أحداً ولا حانوتاً مفتوحاً ولا كتاباً.. ليس هيّناً أن ترى كل شيء جميل يحترق، وكل عزيز عليك يمضغ عذابه بصمت.. لم يكـن هيّناً -أيضاً- أن ترى ابنك يغيب في الدروب فلا تكاد تلتقيه أو تعثر عليه، ولا أن تعطي ابنتك السـكين وتقول لها: اقطعي الحبل الذي يشدّك إلى المحبوب.. الزمن المغولي يضرسك، وجناحـك يهيض فيتطاير منه الريش.. طال يوم الخلاص يا عبد القادر فكيف السبيل؟

"ذهبـت على عجل، مجتازاً أحيـاء البدرية والجعفرية الأقل زحمة، فقالوا لك: خير لك أن ترجع.. تسـاءلت ووجع القلب يشـدّد عليك الخناق: لماذا؟ قالوا: إنهم يسـدّون عليه الطرق.. صرخت: لماذا؟ قالوا: لن يسمحوا لأحد أن يزوره أو يلتقيه بعد اليـوم.. صرخت كرة أخرى: لماذا؟ لم يجبك أحد، وكان عليك أن تسـترجع الصرخة المدوّمة في الفضاء الذي لا شيء فيه.. إن تعتقلهـا في روحك الموجعة، فها هـو ذا الفضاء الوحيد المتبقّي الذي لن يخترقه المغول".

لقد تعامل "المؤرخ" مع الغـزو المغولي من الخارج، وهو لا يتابع الدقائق والتفاصيل، ولا يحاول النفاذ إلى العمق الإنسـاني للواقعة التاريخية، وإنما يكتفي برسـم الهيـاكل الخارجية لها، في حين نحن بحاجة إلى رؤية الفنان لكي نسـبر انعكاسات الحدث على النفس البشرية في أزقة بغداد ودُورها وأحيائها ومساجدها وأسـواقها وملاعبها ومكتباتها.. لقد حاولـت الرواية أن تقدم انطباعاً مأساوياً للاجتياح المغولي لبغداد، وأن تومض -من وراء الحزن والانكسار- بسبيل النهوض والخلاص.

ولقد حاولتُ أن أقيم معمار الرواية وفق صيغة رباعية الأدوار والأصـوات ينمو فيها الحدث عبر نقلات أربـع لزاوية الرؤية، ومن خلال فعـل وتداعيات أبطال أربعة وهم يشـاركون في صناعة الوقائـع والأحداث، ويغرقون في تيارات وعيهم الباطن، ويدخلون سـيلاً من المنولوجات التي تعكس رؤيتهم الانطباعية لتلك الوقائع والأحداث.. وهم ينطلقون منذ اللحظات الأولى، كل من اختياره الحر، لكي ما يلبث أن يجتاز شبكة من الدروب والصدمات والخبرات يجاهد كي يجعل خياره قديراً على تجاوزها بنجـاح. ولكنه ينهزم في نهاية الأمر لأنه رمى بثقله صوب نقطة ارتكاز واحدة في الكينونة البشرية.

إنها دراما الصراع بين العقل والروح والوجدان والجسـد.. ولن يُقدَّر لأحد فيها الخلاص إلا من خلال بذل جهد اسـتثنائي للتحقّق بالوفاق، وذلك ما تومئ به شخصية البطل الرئيسي. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

(1) تناولت أولاهمـا قضية "القدر والحرية" ووقفت ثانيتهما عند مفهوم "الواقعية"، حيث نشرت أولاهما في مجلة "الأدب الإسلامي" ونشرت ثانيتهما في مجلة "حراء".

(2) دار الضياء، عمان ٢٠٠٠ م، وسـيعاد طبعه بعنوانه الأصلي "حول استراتيجية الأدب الإسلامي" في دار ابن كثير، بيروت - دمشق.

(3) ماهر شفيق فريد، مجلة المسرح، القاهرة، العدد ٩، ص:٨٣.

(4) المرجع نفسه، ص:٨٣-٨٥.

(5) يوجين يونسكو: ٥ مسرحيات طليعية، ترجمة وتقديم شفيق مقار، المقدمة، ص:٢١-٢٢.

(6) المرجع نفسه، ص:٢٣-٢٤.

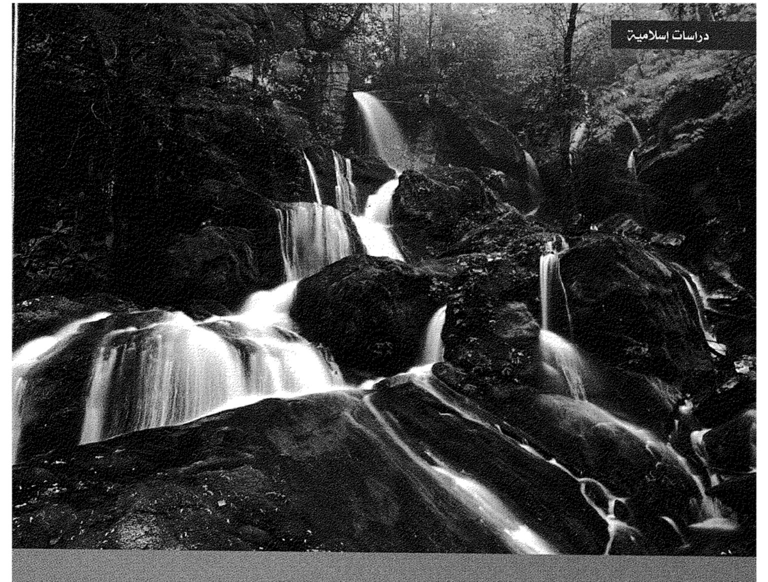
(7) الدكتور نعيم عطية: الخطوط العريضة في مسرح يونسكو، مجلة المسرح، القاهرة، العدد ١١، ص:٩٥، عن يوجين يونسكو: ملاحظات وملاحظات عكسية، ص:٩١.

(8) يوجين يونسكو: ٥ مسرحيات طليعية، المقدمة، ص:٣٨-٣٩.

(9) جلال العشري: صمويل بكت والأيام السعيدة، مجلة المسرح، القاهرة، العدد ٨، ص:١٠٤.

(10) فن الرواية، ترجمة محمد درويش، دار المأمون، بغداد ١٩٨٦ م، ص:٢٧٠.

(11) محمد عزام، وعي العالم الروائي، اتحاد الكتاب العرب، دمشـق ١٩٩٠ م، ص:١٢٢.



مفهوم الحياة في القرآن الكريم

أ.د. الشاهد البوشيخي*

إننا نعيش حضاريا مرحلة في غاية الخطورة والصعوبة، نعيش مرحلة أشار إليها رسول الله ﷺ في الحديث المشهور: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها" (رواه أبو داود). حديث القصعة وحديث الغثاء على طوله، يحدد في الحقيقة ملامح الواقع، كما يحدد الداء ويصف الدواء، ويحدد الداء في الوهن ويصف الدواء في عكسه، ويحدد الداء في حب الدنيا وكراهية الموت، ويحدد الدواء في خلاف ذلك. وفي الآية: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:١٦٥)، إشارة إلى هذا الموضوع وإلى غيره.. وإن تسليط غير المسلمين على المسلمين إنما هو من البلاء الذي يعاقب به المسلمون على خلل فيهم.

لقد أُخرجت الأمة إلى الناس بالقرآن الكريم، وبه صارت خير أمّة أخرجت للناس، وبه كانت وحضرت في التاريخ، وفعلت ما فعلت من خيرات.. فهل هو الآن في المكان اللائق به؟

فساد التصور سبب فساد الواقع

ما سبب عدم بقاء الأمة في موقعها من الشهادة على الناس، وما سبب تدحرجها من موقع الشاهد إلى موقع المشهود عليه؟ إن خللاً ما وقع في الصلة بينها وبين القرآن، وهي أن لألفاظ كتاب الله ﷻ مفاهيم، ولمجموع تلك المفاهيم نسقاً عاما يمثّل صورة الإسلام بكاملها، ولا يمكن أن يتم التمكّن من ذلك إلا بدراسة هذه المكوّنات لذلك النسق العام، ولتلك الصورة الكاملة.

لا يمكن الفهمُ إلا بهذا الفهم، فهم الأجزاء ثم فهمِ الكلّ تبعاً

لفهم الأجزاء. ولا سبيل إلى صنع واقعٍ قبل صنع تصوّر صحيح لما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع. إن فساداً في التصور السليم لمفاهيم ألفاظ كتاب الله ﷻ قد ساد، والحاجة ماسةٌ الآن إلى تجديد فهم هذه الألفاظ، ماذا يريد بها الله ﷻ منّا أفراداً ومؤسسات وأمةً؟

لفظ الحياة في كتاب الله ﷻ

ولهذا اللفظ تصوران مختلفان في القرآن..

أ-التصور الكفري للحياة: وهو تصور يقصر الحياة على الدنيا فقط. لا ينظر إلى ما قبل ذلك ولا ينظر إلى ما بعد ذلك ولا ينظر إلى ما مع ذلك. إذ مع الحياة التي تُرى وتُشاهد كائناتٌ وحياةٌ أخرى لا تُرى ولا تُشاهد. هناك التصور الذي تشير إليه الآية الكريمة محدّدةً له: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾(الجاثية:٢٤). فهنا حصرٌ لمفهوم الحياة في هذه الدنيا فقط دون أن يُلحَظ وأن يُعتبر ما سبق، وما سيلحق وما هو كائن الآن. أقصى درجات العلم لديهم لا تجاوز هذا السطح من الحياة الدنيا، ولا تجاوز هذا المحسوس المشاهد. فكل ما ليس بمحسوس هو غير قابل لأن يُعلَم.

فجميع ما يترتّب على هذه النظرة هو فهْمُ الكفار لهذه الحياة التي تُثمر وتُنتج أنشطةً وأعمالاً تنسجم مع التصور الكفري للحياة، وهذا ليس هو العلم. لذلك نفى الله ﷻ العلم عنهم فقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:١٨٧)، وأثبت لهم العلم الظاهري بالحياة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧).

وأنتج هذا التصور الكفري أموراً وتصرفات كثيرة بناء على العلاقة التلازمية بين التصور والسلوك، كحب الحياة الدنيا والافتتان بزينتها، والاطمئنان والرضا بها والحرص عليها مهما كان الثمن.

كثير من المظاهر وصور السلوك نسبها الله ﷻ إلى الكفّار ونفاها عن المسلمين. وهذه الأمور وقعت بسبب هذا التصور للحياة، أي حين ينطلق الإنسان من أنه لا يملك إلا هذه الحياة الدنيا، وحين يتصور الإنسان أنه لا يملك إلا فترة عمره فقط، فلا شك أنه سيكون حريصاً جداً على الاستفادة من هذه الحياة. أيُّ حياة؟ كيفما كانت. حين ينطلق الإنسان من هذا التصوّر فعلاً يؤثره على سواه، لأنه يؤثر شيئاً بين يديه على شيء لا يؤمن به، فلذلك يقدم العاجلة لكونها عاجلة على الآجلة التي قد تكون وقد لا تكون حسب تصوره الكفري.

ب-التصور الإيماني للحياة: وهو تصور آخر للحياة، حياة ممدودة ممتدة، لا نهاية لها في الزمان البَعْدي ولا نهاية لها في الامتداد الآنيّ. الحياة الآن ليست فقط لهذا الذي يُرى، ولكن هناك كائنات حيةٌ مؤثرة في هذه الحياة، هي الموكول إليها ضبط أمرِ هذه الحياة نفسها. تأمّل قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق:١٦)، بعدها مباشرة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٧-١٨). وتأمّل قول رسول الله ﷺ: "أَطَّت السّماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضع جبهته ساجداً لله تعالى" (رواه الترمذي). إن كائنات كثيرة تحيط بنا وهي التي وُكِل إليها حفظُنا وحفظ ما يتعلق بهذا الكون مما لا نطيق نحن حفظَه، قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(البقرة:٢٥٥). لقد خلق الله ﷻ جنودا له في السماوات والأرض لحفظ السماوات والأرض وما بينهما.

هذا الإيمان بوجود كائنات حيّة بجانبنا لا تُرى هو من صميم ما يدخُل في مفهوم الحياة في هذه الدنيا، لأن الإنسان عندما يتصور أنه وحده في الكون، يكون له سلوك؛ وعندما يتصور أن معه أحياء لهم دور يكون له سلوك آخر. إذن ماذا بعد الموت؟ هل حقاً ينتهي الإنسان حتى قبل البعث؟ وهل يوجد موتٌ بمعنى الفناء التام؟

حقيقة الموت في التصور الإيماني

الموت في الحقيقة هو مجرد انفصال بين عنصرين اثنين مؤسّسين للإنسان وهما كما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢)؛ فآدم عليه السلام في الأصل مسوًّى من عنصر أرضي خالص هو الطين، وفيه عنصر غير أرضي هو من أمر الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(الإسراء:٨٥).

الإنسان هو ذريّة آدم بعد آدم، يحكمه نفس المنطق، يمكث في بطن أمه أربعين يوما نطفةً، ثم يكون علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يرسَل إليه الملَك فينفخُ فيه الروح.. هذه الازدواجية في الخلْق تجعلنا نفهم أن حال الموت لا يؤدي إلى إنهاء الطرفين، وإنما يؤدي إلى الفصل بينهما، فيرجع ما أصله الترابُ إلى التراب، وتصعد الروح إلى بارئها، وهو ما يسمى بالحياة البرزخيّة. وقد نُصَّ على الحياة في هذه المرحلة بالنسبة إلى نوعية

معينة نهانا القرآن عن أن نسميهم أمواتا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾(البقرة:١٥٤). هذا النص يدل على أن المجاهدين أحياء، والحقيقة أن الجميع من حيث أرواحهم أحياء، ولكن حياة السعداء في المنهج القرآني هي الحياة. أما البعث بعد الحياة البرزخية فيُعتبر الخلْقَ الثاني قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾(الروم:٢٧). هذه الإعادة هي على نفس الأصل الأول، يعود العنصر الترابي للالتقاء بالعنصر الروحي فتكون حياة جديدة. فإذن، حتى المرحلة الوسطى المسماة بالحياة البرزخية لا تختفي الحياة فيها بالمعنى الكامل، وإنما تختفي الحياة فقط بالمعنى الدنيوي.

وتبقى حياةٌ لها طبيعةٌ خاصة تتلقى آثارَ الحياة الأولى المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾(يس:١٢). وكأن الإنسان بعد مغادرته -بالموت- لهذه الدنيا، كأنه يُفتح له حساب في الدار الآخرة، في الحياة البرزخية، فالأعمال التي لا تنقطع بالموت تستمر وتدخل حسناتها في حسابه. قال ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له" (رواه مسلم). وقال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾(يس:١٢).

الدعوة للهدى أكبر مورْد للحسنات

وعلى رأس تلك الآثار أجر الدعوة للهدى؛ قال رسول الله ﷺ:"مَن دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً" (رواه مسلم). بهذا المنطق نفسه الذي يشير إليه هذا الحديث يمكن فهمُ المدد المستمر للحسنات والذي لا ينقطع بالموت. ومصدر ذلك الأعمال الصالحة المخلّدة وعلى رأسها الدّعوة للهدى. كما يمكن أن ندرك أن رسول الله ﷺ أعظم المسلمين أجراً لأنّنا جميعاً نُدخِل إلى كتابه حسناتنا، يَدخل إلى حسابه مثلُ ما نفعله من حسنات، لأنه الداعي الأول إلى هذا الخير وإلى هذا الهدى، فمن تبعه ومن تبع مَن تبعه -والأمر ماض إلى يوم القيامة- يستفيد هو ﷺ من كل ذلك. وكل مَن تبعه ودعا بدعوته يستفيد من أجور من استجابوا له، وهكذا دواليك لا ينقطع مدد الحسنات عن الرسول ﷺ والتابعين له.

الحياة الأخرى هي الحياة

هذه الحياة الدنيوية لها خصوصية، وهناك الحياة الأخرى التي هي الحياة، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٦٤). وللأسف لا يعلمون، ﴿وَإِنَّ﴾ التوكيد بـ"إن"، والجملة الاسمية ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، والتوكيد باللام ﴿لَهِيَ﴾، والتوكيد بالضمير "هي" أيضاً، ثم بزيادة الألف والنون في الحياة للمبالغة ﴿الْحَيَوَانُ﴾.. كلها إشارة إلى أنها هي الحياة التي تستحق أن تسمى الحياة، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾. وفعلاً سننسى يوم القيامة هذه الحياة الدنيوية نهائياً ولن تبقى حاضرةً في أذهاننا ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾(الفجر:٢١-٢٣)، ترجع له الذاكرة ليستعيد كل ما مضى، ويتذكر ما قبل ذلك. يتذكر العهد ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢) قبل هذه الحياة الدنيا وقبل أن يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، يتذكر العهد الذي أُخذ علينا في مرحلة سابقة للتخلق الدنيوي، وأُخذ على أرواحنا في مرحلة لا ندريها، ولكنه كان.

مراحل الحياة والموت

ومجموع هذه المراحل أربعة وهو ما تشير إليه الآية: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(غافر:١١)؛ موت قبل هذه الحياة، وموت بعد هذه الحياة الدنيا، ثم حياةٌ بين الموتين، وحياة لا موت فيها ولا موت بعدها وهي الأخيرة التي تستحق أن تسمى "الحياة". إذن ما عادت مناقشةٌ في مسألة الحياة، وما عاد لَبْس في أمر الحياة الآخرة أنها هي الحياة! فيقول الإنسان النادم بصراحة ناسباً ذلك لنفسه: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، وكأن الحياة الدنيوية لم تكن له حياة. لذلك سوف ندرك أن هذه الحياة الأخروية هي الحياة الحقيقية ولكن الناس نيام، فإذا ماتوا استيقظوا وعرفوا الحياة الحقيقية.

هذه النظرة وهذا التصور للحياة الحقيقية الممتدة التي لا نهاية لها، والتي لا يُذاق فيها الموت إلا الموتة الأولى، أي لا موت بعد البعث... هذا التصور لتلك الحياة الممتدة، لها هذا البُعد السابق للدنيا، والبُعد اللاحق للدنيا في صورتين: صورة الحياة البرزخية وصورة الحياة الأخروية وهي الحياة الحقيقية. وكذلك في هذه الدنيا لها الامتداد الأفقي أيضاً الذي يجاوز المحسوس إلى غير المحسوس. هذا التصور إن استقر في القلب وحصل به الإيمان -وأركان الإيمان قائمة على هذا- فإنه يُنتج حياة فردية وحياة مجتمعية وحياة للأمة في صورة معاكسة تماماً للصورة الأخرى، ومغايرة لها كل المغايرة.

التصور المعيَّن يستلزم سلوكاً معيَّناً

وعلى نفس القاعدة المقررة: "أن تصوراً معيناً لابد أن يلزم منه سلوك معيّن"، فتطبيقا لهذه القاعدة تكون تصرفات ابن آدم الخارجية حسب ما هو مستقر في قلبه من التصورات. ويمكن أن نعكس من أجل الدراسة فنقول: إننا من التصرفات الخارجية -إن حلّلناها وعلّلناها بدقة- قد نستطيع استخلاص مدى رسوخ الإيمان ومدى عمق الإيمان ومدى انتفاء الإيمان أيضاً.. فحين نجد في الخارج لدى المسلمين أخلاق الكفار -على سبيل المثال- يصعب علينا أن نقطع بإيمانهم، لأنه لا يمكن مع وجود الإيمان ألا يكون هناك عمل صالح. إذ "ليس الإيمان بالتمني ولكنْ ما وقر في القلب وصدّقه العمل" (رواه البخاري)، حين لا يوجد في الخارج العمل الطيب الصالح الذي يصدق دعوى الإيمان، تتجه التهمة إلى ما في الباطن، أي إلى أن الإيمان غير موجود بالمرة أو ضعيف. لا نستطيع التنقيب عن القلوب، ولكن الظواهر آيات وأمارات وعلامات كما قال ﷺ: "آية المنافق ثلاث" (رواه البخاري)؛ آيات وأدلة على ما لا يُرى.

فإذن هناك قطيعة كاملة بين تصورين للحياة: تصور كفري قاصر قصير محدود، تنتج عنه كذلك أعمال وأخلاق وتصرفات ذات بُعد محدود، وتصور واسع عميق بعيد ممتد لا نهاية له تنتج عنه كذلك أخلاق لا نهاية لسعتها. إن الإسلام رحمة وإن الذي أنزل عليه الإسلام أيضاً صار رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

أصل جميع المعاني الحسنة من الله ﷻ

لابد أن نقرر هاهنا حقيقة قبل المضي في معاني الرحمة، وهي أن جميع المعاني الحسنة أو الأسماء الحسنى إنما هي في الله ومن الله ﷻ، فلا رحمة في الكون ليس مصدرها الله ﷻ من جهة أنه الرحمن الرحيم، ولا علم في الكون ليس مصدره الله ﷻ من جهة أنه العليم، ولا قوة في الكون ليس مصدرها اسم الله من جهة أنه القوي العزيز.. وهكذا.

واستمداد الحياة نفسها من اسم الله الحي كذلك. فكل ذلك يعني أن جميع المعاني الحسنة أصلها من الله؛ فالأخلاق التي هي رحمة مصدرها اسم الله الرحمن الرحيم، إذ رحمته وسعت كل شيء، وإن كانت لن تكتب بعدُ في الحياة الحقيقية إلا للمؤمنين فقط، لأن التقوى فاصل حاسم بين فريق الجنة وفريق النار ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٢٧).

الإسلام رحمة شاملة

إذن الإسلام جملةً هو عبارة عن رحمة في قسمه النظري وقسمه العملي. ومحمد ﷺ هو الجانب التطبيقي لهذا القرآن -لأنه أوتي القرآن ومثلَه معه- هو المثلُ ﷺ حين قال وحين فعل وحين أقرّ مما صحّ طبعاً. إذن هو بالقرآن وبالإسلام صار رحمة. لكن لمن؟ هل هو رحمة لنفسه فقط أم هو رحمة لمن آمن به فقط؟ هل هو رحمة للإنسان فقط أم هو رحمة للإنسان والحيوان فقط؟ إنه رحمة للعالمين، والمسلمون رحمة للعالمين أيضاً. والمسلم بقدر قربه من محمد ﷺ يتسع معنى الرحمة فيه، لأن الإسلام الذي جاء من عند الله ، جاء عامًّا، يعمّ نفعه الناس جميعا "مثَلُ ما بعثني اللهُ به من الهدى والعلم كمثَلِ غيث" (رواه البخاري)، حاله كحال ضياء الشمس، حيث تشرق الشمس على البار والفاجر، وكحال هذا الهواء المُشاع للجميع، وكحال الغيث ينزل على الجميع. والمسلمون الذين يمثلون ذلك الهدى -وهم في الحديث الطائفةُ الطيبةُ- عليهم أن يتسعوا في معانيهم حتى يصيروا كالغيث أو كالغيوث، أي كهذا المعنى العام للرحمة بكل مستلزمات الرحمة. إذ يدخل كل ما في كتاب الله في معنى الرحمة سواء ما اتجه منه إلى جهة الإنعام أو ما اتجه منه إلى جهة المؤاخذة والتأديب، فذلك أيضا من رحمة الله، وذلك مظهر من مظاهر الرحمة الشاملة في الدنيا.

المعنى الحقيقي للحياة دافع إلى إيثار الآخرة

هذا المعنى للحياة هو التصوّر الإيماني الحقيقي للحياة، وعليه تُبنى حياةٌ ويُنتَج ويُصاغ إنسانٌ، لا يُؤثِر العاجلة على الآجلة، بل يؤثر الآجلة على العاجلة، على هذا التصور يصاغ إنسان يريد بالدنيا الآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(القصص:٧٧). إلا أن الدنيا في موقعها من الحياة جملةً -في التصور الإيماني الروحي هذا- مجرد متاع صغير بسيط واستمتاع بلحظات فقط، وهو نفسه ما تشير إليه الآية: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(البقرة:٣٦). ولمن ذلك المتاع؟ لمن اعتبره هو الحياة. وهذا المتاع هو الذي يسمى بالنسبة للمغترّ به متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:٢٠)، لكون الإنسان خُلق خلقا معينا فيه استعداد كبير للتجاوب والاستجابة للشهوات ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠). وهذا الاستعداد في الإنسان للاستجابة للشهوات هو الذي رتّب الله عليه سنة الابتلاء ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(الملك:٢). وبسبب هذا الاستعداد كانت آيات كثيرة وأحاديث كثيرة تزهّد المسلم في الدنيا، بما في تركيب الإنسان من مَيْل شديد إلى هذا الاتجاه؛ بل وتُمثّل له الدنيا بكاملها على أنها مجرد متاع أو متاع الغرور ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾(الكهف:٤٥).

ففي الآيتين معا تصويرٌ للحياة على أنها سريعة عابرة لا ينبغي أن تغرّ الإنسان بحلولها وحضورها وحضوره هو فيها.. كل ذلك ينتهي سريعاً، ولهذا قال ﷺ: "كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل" (رواه البخاري). فلو وضعنا زمانَ عمرِ كلِّ واحد منا -ولو كان ذا القرنين- إلى حساب ما سبق وحساب ما يلحَق في الحياة البرزخية، وحساب ما سيلحق في الحياة الأخروية التي لا نهاية لها، لبدَا الإنسانُ مجردَ عابر سبيل فقط، ليست الدار داره ولا مكان إقامته، ولا ينبغي أن يتعلق بها، بل يركب ما فيها ويتجه إلى الحياة الحقيقية، يستعملها ويريد الآخرة بها.

فساد التصور لمفهوم الحياة هو سبب الوَهَن

من هنا نأتي إلى أمر "الوَهَن" الذي بدأنا به الكلام وفسره الرسول ﷺ بحبّ الدنيا وكراهية الموت. ونتساءل كيف يحب المسلم الدنيا؟ لا يحبها إلا إذا شاب تصوّرَه لمعنى الحياة شوائب، إنْ لم يكن قد فسد تماما، إذ ذاك فقط يمكنه أن يقْصر حياته على الدنيا ويتجه إلى الدنيا، ويتعلّق بالدنيا ويهتم ويحرص على الدنيا، ويطمئن بالدنيا ويرضى بالدنيا...

لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان في التصور فسادٌ. فيجب إذن أن يُرجَع إلى الآيات الكريمة التي تتحدث عن الحياة مطلقاً. فحيثما وجد لفظ الحياة وحيثما كان لفظ الحياة، ينبغي تتبُّعه في سياقاته القرآنية لاستخلاص تصور شامل في النهاية لمفهوم الحياة في القرآن الكريم. لابد أن يُحي معنى الحياة في القرآن الكريم في النفوس ليستطيع الإنسان أن يعرف معنى الحياة حقيقة. وهذا منهج كامل في استخلاص المفاهيم جملة لتصحيح التصور الجزئي والكلّي لهذا الدين، انطلاقا من كتاب الله ﷻ.

التصور الإيماني لحقيقة الحياة الدنيا

هناك تصوران أيضاً في هذا القسم الصغير المسمى بالحياة الدنيا: تصور يعتبر الحياة هي هذه الحياة المادية ويعتبر الأحياء هم هؤلاء الذين يمتلكون خواص الحركة والنمو.. إلى غير ذلك من المظاهر المادية للحياة. هذا تصور ولا يُنفى؛ ولكن إلى جانبه يأتي تصور ثان للحياة على نفس القاعدة المعروفة: "الحج عرفة" بمعنى أن الحياة الحقيقية هي هذه التي سنتكلم عنها لا تلك التي تعبّر عنها المظاهر المادية.

فما هي هذه الحياة؟ وما هذا التصور لها؟ ذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾(الأنعام:١٢٢). ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾؟! مَنْ هؤلاء؟ هؤلاء أمثال أبي بكر وعمر وعثمان والمؤمنين جميعا قبلهم وبعدهم حين ينتقلون من حال الكفر إلى حال الإيمان، ينتقلون من الموت إلى الحياة ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾(الأنعام:١٢٢)، أي في ظلمات الموت الدنيوي. بينما المؤمنون يتولاهم الله تعالى فيحييهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾(البقرة:٢٥٧)، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، هل يستويان؟ أبداً ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾(فاطر:٢٢).

المعنى الأول بسيط، والمعنى الثاني عميق، والنّذارة عموما لا تنفع إلا في الأحياء بالمعنى الثاني ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾(يس:٧٠). أما الذي ليس بحيٍّ ولو وصلَتْه النّذارة كأبي جهل وأبي لهب، فإنه لا يستفيد، لن تنفع فيه النّذارة إلا من جهة إقامة الحجة عليه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٥).

وهذا التفريق بين الحي حقيقة والحي حكما هو الذي جعل القاعدة الكبيرة تطرد في التطبيقات الواضحة في دعوة الله ﷻ للحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤). فالمستجيبون هم الأحياء والرسول يدعوهم إلى ما يحييهم. فإذن هناك الحياة العادية الحسّية، والإنسانُ بها في المنطق القرآني الإيماني لا يعتبر حيّاً، وإنما هو مؤهّل لأن يكون حيّاً. ذاك تمهيد ومقدمة صحيحة تؤهل صاحبها لأن يتلقى ما يحييه، إذ الميت ولو دعوناه فلن يستجيب ولن يسمع.

فللإنسان إذن في هذه الدنيا حياتان، حياةٌ عادية مادية خبيثة في تصنيف القرآن، وحياة روحية طيّبة في تصنيف القرآن أيضاً ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧). حياة طيبة، وعكسُها الحياة الخبيثة التي يكون أصحابها كما قال الله ﷻ فيهم: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(الأعراف:١٧٩). والسبب أن

الأنعام لها غرائز تهديها بناء على الأصل الكبير ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، هَدى جميع الكائنات هدايةَ عقول، وهداية غرائز، وهداية تسخير وغير ذلك من الهدايات، إذ كل مخلوق ميسَّر لما خلق له، كما قال ﷺ: "اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق له" (رواه البخاري). هذه قاعدة في الكائن الإنساني بالنسبة للاختيار في مسألة العمل، أما بالنسبة لباقي الكائنات فالتسخير فيها جِبِليٌّ، يعني في أصل الخلقة. فكل الكائنات مهدية بهذا المعنى، سائرةٌ إلى ما خُلقت له. ولكن بالنسبة للإنسان ابتُلي بالتكليف، والهدى حينما جاءه، جاءه وقد وضِع فيه استعدادٌ ليميز بين الخير والشر والصالح والطالح. فإن استجاب واهتدى فقد رشد فعلا وقد اتجه إلى العمل الصالح والحياة الطيبة، وإن لم يستجب صار أحط من الأنعام. لماذا؟ لأن الأنعام مهديَّةٌ بالغريزة، وهو لم يهتد إلى هدًى، فصار عاصياً جاحداً للنعمة أصلاً، وصار كافراً بالمرَّة، بحسب الدرجة التي استقرت عليها وجهتُه باختياره، ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(الحجرات:٧). إذن هناك الولادة الأولى والولادة الثانية، وما به تتم الولادة الثانية هو الذِّكر. وذلك ما أوضحه الرسول ﷺ في الحديث المشهور: "مَثَل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكرُ ربَّه مثل الحيِّ والميِّت" (رواه البخاري).

والذكر هو كلّ الدين، ولا وظيفة لرسول الله ﷺ غيرُ هذا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾(الغاشية:٢١). والذي أنزل عليه هو ذكرٌ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(التكوير:٢٧).

القرآن ماء الحياة الحقيقية

فبهذا القرآن إذن وحده تتم الحياة، ولا سبيل إلى الحياة الثانية بالمعنى الصحيح إلا بماء الحياة. والماء الذي يتم به الإحياء هو هذا القرآن الكريم النازل من عند الله ﷻ، ولا سبيل إلى إحياء الإنسان الفرد ولا الإنسان الأمة بغير هذا الماء.

إن الله تعالى جعل الماء سبباً للحياتين: الحياة العادية المادية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠)، والحياة الروحية هي أيضاً من الماء الذي عبّر عنه الرسول ﷺ بالغيث بصريح العبارة: "مَثَل ما بعثني به اللهُ من الهدى والعلم كمَثَل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيِّبة..." (رواه البخاري). فهذا الماء هو غيث الأرواح فعلاً، كما يفعل الماء في الأرض فتنتشر الرحمة ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(الروم:٥٠). وإذا نزل غيثُ القرآن في القلوب وامتزج بها وُلدت ولادة جديدة، وولد الإنسانُ الولادة الجديدة ليحيا الحياة الطيبة التي تسمى في منطق القرآن "الحياة الحقيقية".

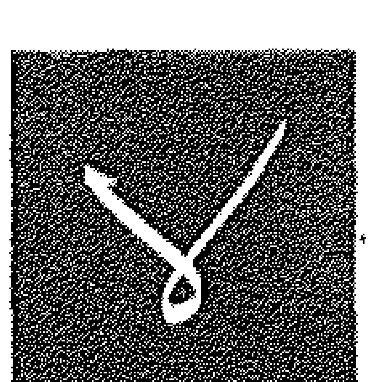
وجميع أجزاء القرآن هي مُحْييات قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(البقرة:١٧٩). هذا حُكم من الأحكام فيه عنصر من عناصر الحياة. أما قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤). فدعوة للحياة بصفة عامة. فكل ما دعا إليه الرسول ﷺ من كتاب وسنةٍ هو مما يحيي هذا الإنسان، ومما تجب الاستجابةُ إليه لنحصُل على الحياة.

إذا كان الماء يُحدث الحياة في النباتات التي نراها في الأرض، فهو سبب الحياة أيضاً في الحيوانات والإنسان من جانبه المادّي، لكنّ سبب الحياة الإيمانية هو القرآن، ولهذا سماه الله ﷻ روحا ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢). إذا كانت الروح بعد الشهر الرابع تُنفخ في الجنين الطيني فيصير الإنسان بهذه الروح خلْقا آخر كما قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾(المؤمنون:١٤)، وخلقا آخر يتأهّل بعدُ للتكليف، ويتأهّل لعمارة الأرض، ويتأهل للخيرات في هذه الدنيا.. إذا كان بالروح يحدث له ذلك، وينشأ خلقا آخر، فإنه بروح القرآن يُنشأ الإنسان أيضا خلْقاً آخر بالمعنى الثاني للحياة. فتلك روحٌ وهذه روحٌ، روح إذا نُفخت في الفرد صار خلقاً آخر، وصار طاقة جبّارة متحرِّرة مما سوى الله ﷻ، فلم يعد عليه لغير الله سبحانه سلطان. ومثل ذلك يحدث للأمة، إذ لا يمكن أن تتخلّق الأمة -أي أمّة الإسلام- لتصير أمة قوية متحررة من كل سلطان إلا سلطان الله إلا بالقرآن، أي بروح القرآن، بل وتصير أمة متماسكة متساندة كما تحدث عن ذلك الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: "مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد..." (رواه البخاري). فللجسد خصائص الوحدة مع التنوع الداخلي، لكن مع التنوع يوجد التداخل التام والانسجام التام بين الأجهزة المكونة له. فالجسد مع التنوع له خاصية الوحدة، وكذلك الأمة مع تنوع العناصر المكونة لها خصائص الوحدة والتلاحم. وليصير المسلمون جسداً، لابد لهم من هذه الروح ولابد أن يحيوا بهذه الروح أفراداً، ويحيوا بهذه الروح أمّة. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

لا سلام مع الظلم ولا إرهاب مع العدل

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*



لا ريب أن السّلم هو مطمح آمال المجتمعات الإنسانية كلها، إذ هو المناخ الذي يتحقق فيه الأمن وتشيع فيه الطمأنينة.

ولكن السلم ليس شيئاً يصنعه الإنسان أو عملاً يمارسه، إنما هو رغبة في النفس ومقصد من أهم مقاصد الإنسان. وإنما سبيل الإنسان إلى تحقيق رغباته والوصول إلى مقاصده، أن يبحث عن الأسباب الموصلة إلى تلك الرغبات والمقاصد، فيمارسها ويعكف على إنجازها.

فما هو السبب السلوكي الموصل إلى السلم؟ ما هي الوسيلة التي إن تمت ممارستها تحققت في المجتمع الإنساني حقيقة السلم؟

لا توجد إلا وسيلة واحدة لبلوغ هذا المقصد، إنه ممارسة العدالة في علاقة الإنسان مع الإنسان. ومن الواضح أن هذه الممارسة لا تتأتى من شخص واحد، إذ هي علاقة سلوكية تسري ما بين الأشخاص تتلخص في عدم العدوان على حقوق الآخرين، وعدم التقصير في النهوض بالواجبات المرعية تجاه الآخرين، وإنما يتم ذلك بسلوكات نوعية متبادلة.

إذن، فالعدل هو الوسيلة السلوكية المتبادلة التي توصل المجتمع إلى مناخ السلم، ومن ثم تحقق في حياة أفراده الأمن والطمأنينة، وإذا غاب العدل غاب معه الطريق الموصل إلى السلم.

ولما كان القرآن الذي هو خطاب الله الموجه إلى عباده جميعاً، يتضمن دعوة ملحة إلى سلوك السبيل المؤدي إلى واحة السلم، وذلك في مثل قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(البقرة:٢٠٨)، فقد ركز في تعريفه للسبيل المؤدي إليه، تركيزاً كبيرا متكرراً على ضرورة ممارسة العدل في العلاقات الإنسانية جمعاء، بل إنه يأمر الناس باللجوء إلى هذا الميزان في كل الأحوال ومع الآخرين أياً كانوا، وأياً كان نوع العلاقة معهم.

تأملوا في حرارة هذه التوصيات وتأكيد الأمر بها بمختلف الأساليب:

- ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨).
- ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾(الأنعام:١٥٢).
- ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا

حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء:٥٨).

- ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾(النحل:٩٠).
- ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الحجرات:٩).

إن هذه الأوامر المتكررة بأساليبها المتنوعة والموجهة إلى الناس جميعا للانضباط بموازين العدل، ليس إلا تفسيرا لكلمة ﴿ادْخُلُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(البقرة:٢٠٨). إنها بيان للمدخل الذي لابد منه ولا بديل عنه سبيلا إلى السلم.

وإذ قد ذكرنا معنى العدالة قبل قليل، وهو باختصار شديد رعاية الحقوق والواجبات، فمن اليسير إذن أن نعلم أن التطرف هو الجنوح عن هذه الرعاية. فكأن العدل هو الطريق الآمن العريض الذي تتلاقى على السير فيه الأسرة الإنسانية جمعاء، والتطرف هو الجنوح عنه شارداً ذات اليمين أو ذات السيار. ولا ريب أن هذا الجنوح إذ يبتعد بصاحبه عن صراط العدل، لابد أن يزجّه في لون من ألوان الظلم، إذ هما نقيضان إن غاب أحدهما حل الآخر مكانه. وإذا وقع الظلم انقدحت من جراء ذلك شرارة الفتن، وما هو إلا أن تعصف رياحها برواق السلم وتقضي عليه.

إذن، على كل من ينشد السلم أن يبرهن على صدق بحثه عنه بتوخي العدالة والسهر على حمايتها وحراسة موازينها، بل إننا لا نشك أن كل من استهان بموازين العدل وضحّى بحقوق الآخرين في سبيل مصالحه ورغائبه الذاتية، فهو عدو للسلام، ماض في طريق القضاء عليه، سواء كان فرداً من الناس أو ممثلاً لدولة.

وعلى ضوء ما تقدم بيانه، نستطيع أن نبرز معنى "الإرهاب". هذا المعنى الذي ظل مخبوءاً عن الكلمة المعبرة عنه، على الرغم من إلحاح كثير من الدول والمجتمعات الإنسانية على الذين فاجؤوا العالم بهذا المصطلح واتخذوا منه فتيلاً لإشعال نار الحروب، أن يكشفوا للعالم المعنى الخفي الذي يقصدونه به.. أقول على ضوء هذا الذي تم بيانه، نستطيع أن نبرز معنى "الإرهاب" من تلافيف الخفاء. إنه كل جهد يهدف إلى العبث بميزان العدالة ويلحّ على اغتصاب الحقوق انتصاراً للذات واعتماداً على مبررات القوة التي لا يتمتع بها الآخرون.

فكيف السبيل إلى حماية الطريق إلى السلام أن لا ينسف بأسلحة الإرهاب فتحجز المجتمعات الإنسانية أو أكثرها من السلام الذي تنشده، إذ يقوم بينها وبينه برزخ من القطيعة وفجوة عميقة مما أحدثته يد الإرهاب؟

السبيل إلى ذلك اتباع القانون الذي أخذنا به بيانُ الله القائل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة:١٧٩). وبعبارة أخرى، السبيل إلى ذلك الضرب على أيدي المتربصين بالسلام. وإنما يكون الضرب على أيديهم بإنزال العقاب المكافئ لجريمتهم، وإنه لَلسّياج الذي لابد منه لحماية السلام.


ولم ترد في القرآن ألفاظ الجهاد والقتال إلا تعبيراً عن هذا المبدأ، وليس فيه آية تدعو إلى الجهاد أو القتال، إلا ضدّ من يصرّون على إبعاد موازين العدالة عن الطريق إلى تحقيق رعوناتهم وإلى بسط سلطان بغيهم على الآخرين. فإذا أقلع البغاة عن بغيهم وجنحوا إلى السلم، وجب الكف عنهم ومدّ يد التعاون معهم على حراسة السلام وتعبيد الطريق إليه.

يبدو هذا جلياً في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠).

ونتبيّنه جلياً أيضاً في قوله ﷻ: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الممتحنة:٨).

ومن كان دأبه أن يتتبع كلمات القتال والجهاد في القرآن، وأن يحصي أعدادها، ثم يقطعها عن المناسبات والجمل التي أحيطت بها، ليتأتى له أن يزعم أن القرآن قاموس إرهابي يُصدر إلى الناس أوامر القتل والبغي والجهاد، فمشكلته أنه يعمي عينيه عن ألفاظ العفو والصفح واللطف والعدل والقسط التي يفيض بها القرآن الكريم. وهي لو أحصاها لبلغت أضعاف ما يتتبّعه من ألفاظ القتال والجهاد؛ على أن الألفاظ أياً كانت، عندما تكون مفردات في القاموس لم تُستعمل بعد للتعبير بها عن حكم أو قرار، فهي كالمادة الخام قابلة لأن تُوجّه إلى أي غرض أو استصناع. وما لم يتم إدخالها في طور الاستصناع والاستعمال، فهي إذن ليست أكثر من مجرد قابلات لأي توجيه أو صنع.

على أن العدالة إن غابت وحلّ محلها الظلم، فإن من الممكن أن تمتاج لواعج الظلم في نفس المظلوم فيقضي على بعض البرآء في طريق انتقامه من الظالم، ولكن مردّ هذا التصرف إلى الثورة التي يحدثها الظلم في نفس المظلوم، وقد نهى القرآن عن ذلك وأمر المظلوم أن لا يسرف في الثأر أو الانتقام لنفسه بحيث يزهق مع حياة المجرم الذي ظلمه أرواحَ حاشية من البرآء، ألم يقل: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾(الإسراء:٣٣).



ولواعج الثأر من شأن الطبيعة الإنسانية عندما يستشرى الظلم في المجتمع، ويعتدّ القوي فيه بقوته إلى درجة أن يجعل منها بديلاً عن القانون وتفسيرا للحق. وهذه اللواعج تجتاح اليوم المجتمعات الغربية أكثر مما هي موجودة في مجتمعاتنا الإسلامية. أياً كان الأمر فإن الشريعة الإسلامية تُلجمها بلجام التربية الدينية التي تتلقى غذاءها من عوامل الخوف من الله والاستسلام لحكمه وسلطانه. وإنا لنعلم أن في قوى الشر ما يستثير هذه اللواعج في نفوس المظلومين، لتدفعهم إلى تجاوزات تتخطى حدود الشرائع والقوانين، كي تلصق بهم تهمة الإرهاب، فيعثر المخططون لاستلاب الحقوق واستلاب الأوطان على المبررات الشكلية لذلك، وإنّ في أرشيف الذاكرة لنماذج ومستمسكات كثيرة لذلك.

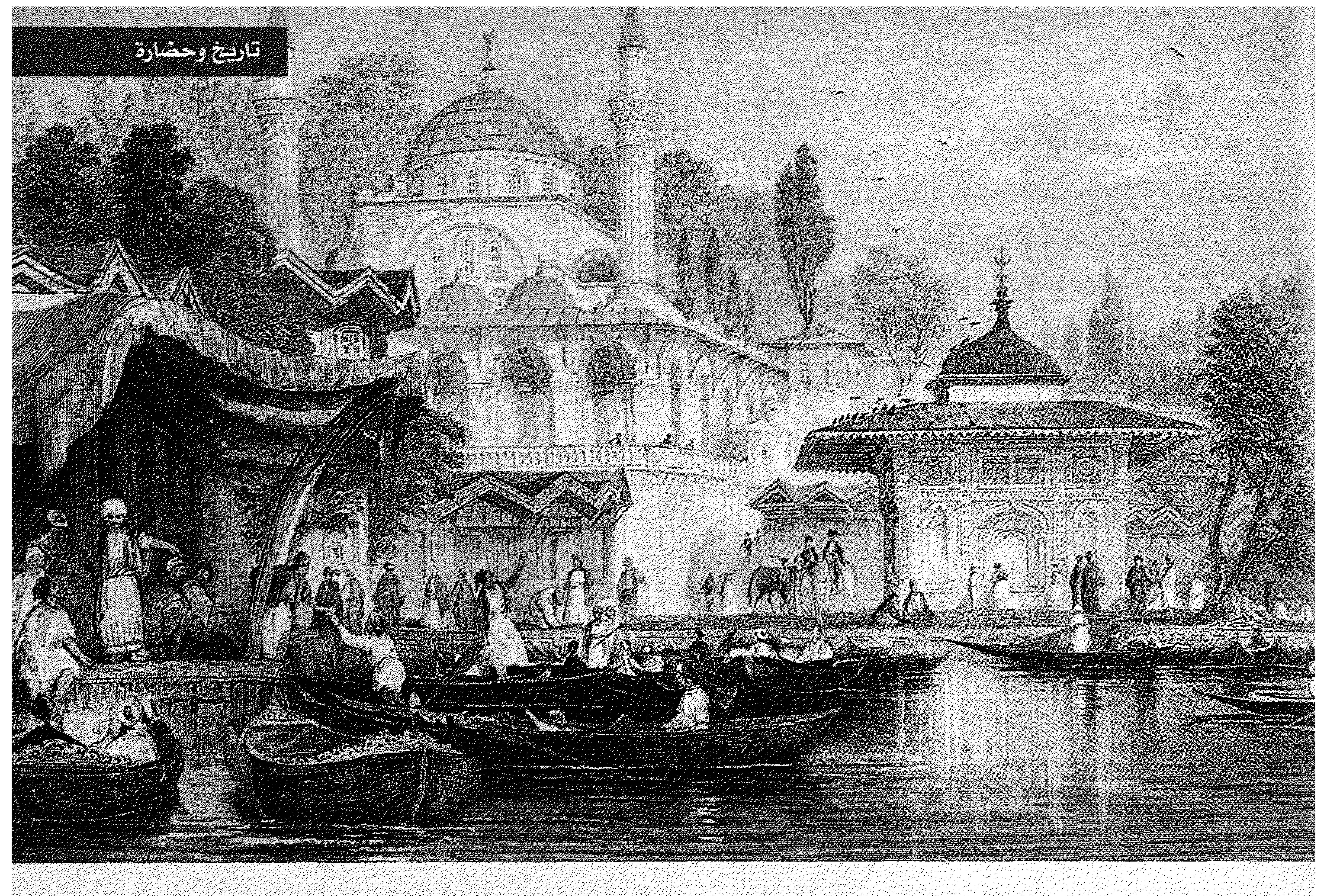
يطيب لي أخيراً أن أختم حديثي هذا بسؤال أرجو أن أتلقى إجابة شافية عنه. في عام ١٩٧٦م رفع "وليم كليفورد" مدير معهد علم الإجرام في أستراليا تقريرا عن سلسلة مؤتمرات عقدتها المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة المنبثقة عن الجامعة العربية، إلى هيئة الأمم المتحدة التي كانت قد أرسلته إليها بصفة مراقب، تضمن التقرير ما خلاصته لفت نظر الدولة الغربية إلى احتمال ظهور ما سماه "يقظة إسلامية جادة" في الدول العربية. فإذا قرن ذلك بما يملكه بعض هذه الدول من ينابيع النفط، فإن من الراجح أن اجتماع هاتين القوتين سيشكل خطراً حقيقياً على الحضارة الغربية. ثم يوصي التقرير بناءً على ذلك بأن تضع الدول الغربية أيديها بالطرق الممكنة على ينابيع النفط بأسرع وقت.

إن الملاحظ أن التقرير الذي يبلغ ثلاثين صفحة لم ترد فيه كلمة "الإرهاب" على الإطلاق، ولم تكن إستراتيجية السياسة الغربية تستعمل هذا المصطلح بعد.

فما السبب في أن لصيقة "الإرهاب" هذه إنما تم العثور عليها ثم لصقها بالإسلام والمسلمين، بعد تلقي المؤسسات الغربية المعنيّة، لهذا التقرير الذي ينصح الدول الغربية باستلاب ينابيع النفط من أصحابها والعمل على منع "يقظة إسلامية جادة" يمكن أن تنبعث عما قريب.

هل للعالم العربي والإسلامي أن يتلقى جواباً شافياً عن هذا السؤال من المصادر التي تلقت تقرير "وليم كليفورد" ثم عكفت على دراسته ووضعه موضع التنفيذ؟ ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

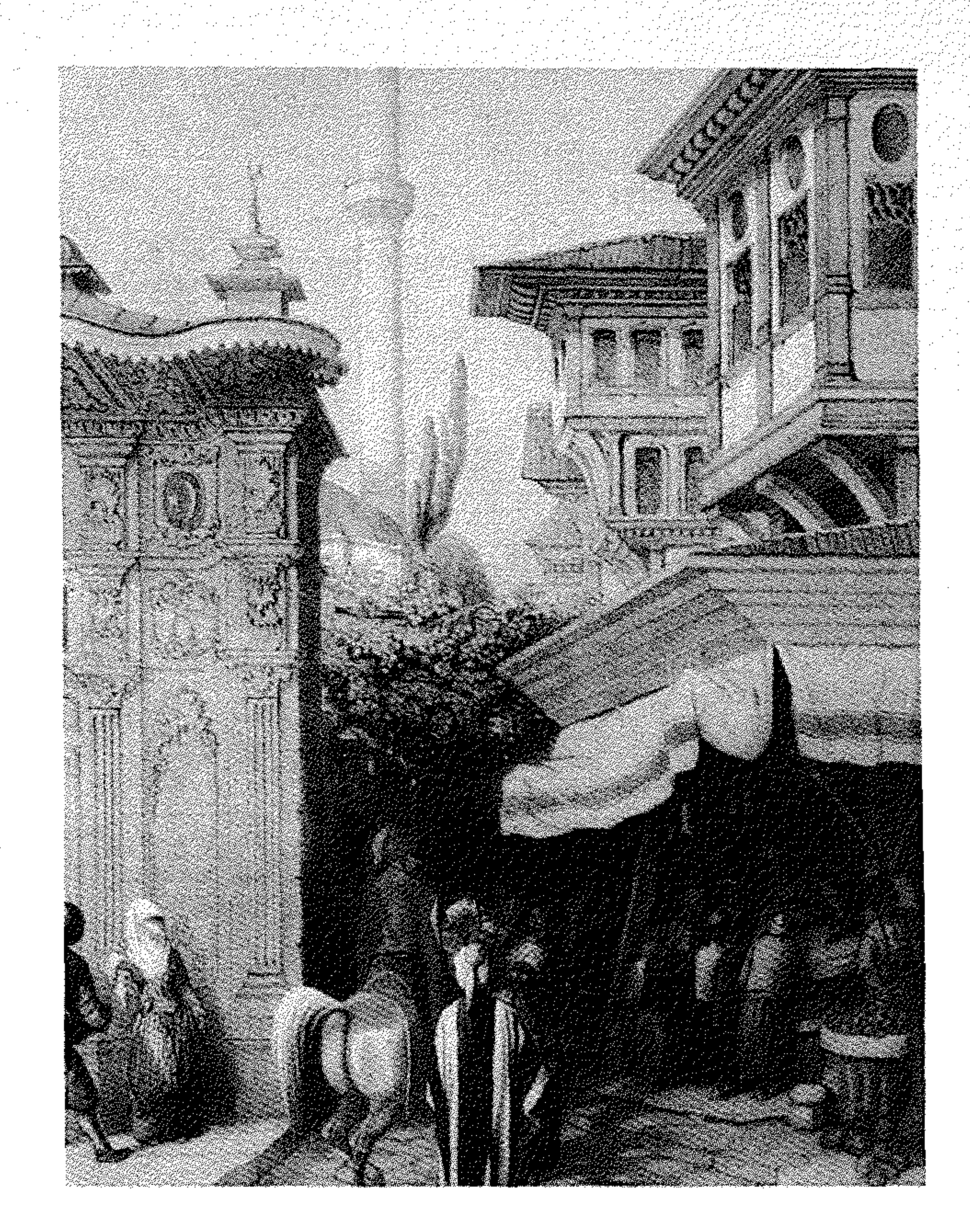


الثقافة التسامحية لدى العثمانيين

أ.د. سعاد يلدريم *

إن أبرز لوحة تُصور موقف الإسلام من غير المسلمين، هي التي نقلها شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي عن الإمام أبي يوسف رحمهما الله. فإن أبا يوسف قال في مناجاته عند موته: "اللهم إن كنت تعلم أني ما تركت العدل بين الخصمين إلا في حادثة واحدة فاغفرها لي". قيل وما تلك الحادثة؟ قال: "ادعى نصراني على أمير المؤمنين دعوى فلم يمكني أن آمر الخليفة بالقيام من مجلسه والمحاباة مع خصمه، ولكن رفعتُ النصراني إلى جانب البساط بقدر ما أمكنني، ثم سمعت الخصومة قبل أن أسوي بينهما في المجلس، فهذا كان جوري". ليُعلَم أن هذا من أهم ما ينبغي للقاضي أن ينصرف إليه في العناية لما أشار إليه في الأثر فقال: "...لا يطمعَ شريف في حيفك ولا يخافَ ضعيف من جورك" (رواه البيهقي)، والحيف هو الظلم. فاذا قدّم الشريف طمع في ظلمه وانكسر بهذا التقديم قلب خصمه الضعيف فيخاف الجور".

لنقف قليلاً عند هذه الحادثة.. مواطن عادي مسيحي يجترئ ليرفع شكواه على رئيس دولة المسلمين بكل ثقة واطمئنان. وأبو يوسف هو قاضي القضاة، أي في أعلى منصب قضائي في الدولة العباسية، والدولة في ذروة ازدهارها. وقاضي القضاة استمع إلى الدعوى دون أن يسوي بين الخصمين في المكان، لأن القاضي استحيا من أن يأمر الخليفة بالقيام والاقتراب من خصمه. وهذا خطأ بسيط جداً، إلا أن قاضي القضاة لم ينسه لدرجة أنه رآه الظلم الوحيد الذي ارتكبه في حياته القضائية واستغفر منه. ومن جهة أخرى فإن السرخسي بدل أن يصغر هذا الخطأ فإنه يشتد ويقول: "إن هذا من أهم ما ينبغي للقاضي أن ينصرف إليه". ولا ينبغي لنا أن ننسى أن هذه الحادثة نقلت في كتاب "المبسوط" أي في كتابٍ من أمهات مصادر الفقه الإسلامي، ومؤلفه فقيه مشهور، أي رجل قانون، ولم تنقل في كتاب أدب أو مناقب. وهذا هو الذي يكسب الحادثة قوة كبيرة. ومن ثم نستطيع أن نقول: إن



هذه الحادثة الدالة تكفي وحدها لأن تلخص موقف الإسلام تجاه غير المسلمين. نكتفي بهذا وننتقل إلى تأسيس الدولة العثمانية.

استوطنت عشيرة "قايي" التركية غربي الأناضول في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، بأمر السلطان السلجوقي "غياث الدين كيخسرو" في حدود الدولة السلجوقية البيزنطية. وإن الأمير "أرطغرل" والد الأمير "عثمان" ينتسب إلى هذه العشيرة.

أقطع السلطانُ لـ"أرطغرل" قرية "سُوغوت" في منطقة "بيلاجيك"حيث اتخذها مركزاً لعشيرته، وكان عامة أهل "بيلاجيك" من المسيحيين. وقد أسس الأمير "أرطغرل" علاقات طيبة قائمة على المحبة مع أمراء هؤلاء الأهالي وكسب قلوبهم. وابنه عثمان (ت ١٣٢٤م) أمر القرى التي بجواره، أن ينقادوا لحكمه مع حسن الجوار بالمسيحيين الذين كانوا يعيشون في تلك الناحية. ونشاهد أن الخط الأساسي في سياسة الدولة العثمانية منذ البداية، هو أن أمراءها توجهوا إلى الدولة البيزنطية، بدل أن يتقاتلوا مع نظرائهم من أمراء الأتراك المسلمين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم. فإنهم توجهوا إلى قلاع البيزنطيين وفتحوها وألحقوها بحكمهم شيئاً فشيئاً. لم يكتفوا باستعمال القوة العسكرية فقط، بل أسسوا علاقات ودية مع السكان غير المسلمين. فمثلاً عشيرة الأمير عثمان كانت تسكن قرية "سوغوت" في فصل الشتاء وتصعد إلى هضبة "دومانيج" في الصيف ويترك أهاليها بيوتهم وأمتعتهم عند أهالي "بيلاجيك". وعند رجوعهم في بداية الشتاء كانوا يقدمون إليهم مقابل ذلك الأغنام والأجبانَ والبسطَ والهدايا المختلفةَ لمحافظتهم على أماناتهم.

وكانوا يرسلون إليهم هداياهم بواسطة نسائهم حتى يأمنوا من سطوتهم. وكان الأمير عثمان، يرى أن فتح أي مدينة عنوة يتسبب في خرابها، ولهذا كان يسعى لتأسيس العلاقات الحسنة لكي يفتحها صلحاً. وإذا سئل عن سبب هذه المعاملة كان يقول: "نحن جئنا إلى هذه البلاد غرباء، وهؤلاء هم أهلها لم يمنعونا منها، فعلينا أن نحترم حقوقهم ونكون أمناء في حقهم".

وفي يوم من الأيام اشترى مسلمٌ تركي من سوق "بيلاجيك" عدة أكواب من تاجر مسيحي و لم يدفع له ثمنها. وعندما علِم الأمير عثمان بهذا، استدعاهما وأخذ حق التاجر المسيحي من المسلم التركي وأرسل منادين في المنطقة ليعلنوا أن الأهالي كلهم تحت حمايته ورعايته، وأنه سيقف ضد أي تعدٍّ نحوهم. ومن ثمرات هذه السياسة نرى أن الأمير أورخان بن عثمان (ت ١٣٦٢م) لم يتعرض لأي مقاومة أثناء فتح مدينة "بورصة" (١٣٢٦م)، حيث سلم أمير "بورصة" المدينةَ صلحاً. واتخذ الأمير "أورخان" مدينة "بورصة" عاصمة للدولة العثمانية.

و لم تكن النصارى وحدهم مَن لاقوا الأذى الكثير من الحكام البيزنطيين، بل اليهود الذين كانوا قد سكنوا القرى المختلفة في منطقة "تراقيا" أيضاً، فرحوا بفتح المسلمين الأتراك البلاد.

ولما سأل الأمير "أورخان" وزيرَ إمارة "بورصة" -الذي لعب دوراً كبيراً في تسليم البلد- عن سبب تسليمهم بلدهم إليه قال: "إن هناك عدة أسباب؛ أولاً: إن دولتكم أصبحت تتسع وتقوى بسرعة، بينما دولتنا بدأت تتهاوى يوماً بعد يوم. وثانياً: إنكم ألحقتم مزارعنا وقرانا حوالي "بورصة" إلى حكمكم، فرأينا العدل والأمان في ظلكم، ولاحظنا أنكم لا تأخذون أي شيء من أموال هؤلاء الناس، كما شاهدنا أن هؤلاء الناس رضوا عن حكمكم وصاروا وكأنهم لا يعرفوننا ولا يذكروننا. فلما رأينا طمأنتهم وراحتهم رغبنا في حكمكم".

ثم واصل سلاطين آل عثمان فتوحاتهم في البلقان. وكان أهالي المنطقة هناك يعانون من الضرائب الباهظة التي فرضتها عليهم الدولة البيزنطية. الأمر الذي جعل معظمهم يحتمي

بالحكم العثماني، حيث كانت الدولة العثمانية تكتفي بضريبة خفيفة، مما مكّنهم من الاحتفاظ بأموالهم وأنفسهم في الوقت نفسه. ومن جهة أخرى فإن عامة أهالي البلقان كانوا ينتسبون إلى المذهب الأرثوذكسي وكان الأوربيون يجبرونهم على الدخول إلى الكاثوليكية ويهددونهم بالقتل. واعتبر هؤلاء الناسُ العثمانيين منقذين لهم من أيدي هؤلاء الظالمين.

واستغلّ الأوروبيون ضعف البيزنطيين وحاجتهم إلى مؤازرتهم وتأييدهم فاشترطوا قبول مذهبهم الكاثوليكي. وفي يوم ١٢ ديسمبر ١٤٥٢م، صلّوا في الكنيسة الكبرى (آياصوفيا) حسب المذهب الكاثوليكي فكرهَهم أهالي القسطنطينية حتى قال رئيس وزراء الدولة البيزنطية مقولته الشهيرة: "بدل أن أرى في القسطنطينية قبعة الكاثوليك أفضّل أن أرى فيها عمامة الأتراك".

يقول المؤرخون إن توسّع أراضي الدولة العثمانية في الأناضول وفي البلقان يرجع إلى أسباب اجتماعية وأخلاقية بجنب قوتهم العسكرية، لأن القوة العسكرية لا تكفي وحدها لإخضاع بلاد تضم أقواماً من مختلف الأجناس واللغات والعروق والأديان..

فهذه ترجمة فرمان السلطان محمد الفاتح الموجه ألى أهل الذمة بعد الفتح في آخر جمادي الأولى سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م):

١- أعطيهم حرية العبادة وإجراء طقوسهم وشعائرهم على ما تعارفوا عليه في تاريخهم.

٢- أموالهم وأرزاقهم ومخازنهم وبساتينهم وسفُنهم وجميع أمتعتهم في حمايتنا، وأيضاً نساؤهم وخدامهم وعبيدهم وجواريهم مصونة من تدخلنا.

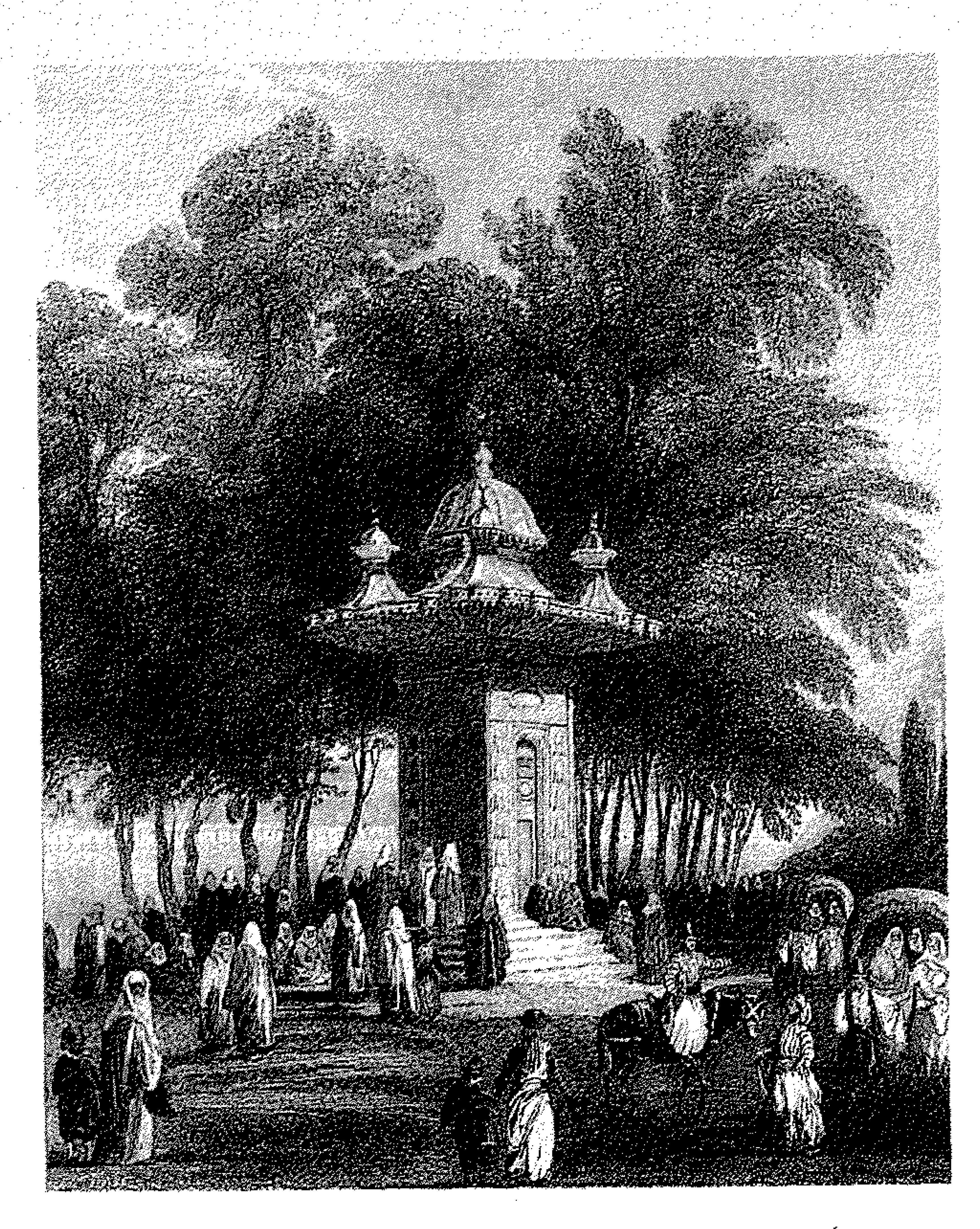
٣- لهم الحق في أن يزرعوا أراضيهم ويسافروا في البر والبحر دون أي تحديد أو تدخل.

٤- عليهم أن يدفعوا الخراج الشرعي سنوياً، وعلينا أن نحفظ أنفسهم وأموالهم.

٥- لهم حق العبادة وإجراء الطقوس ودراسة كتبهم، وليس لهم ضرب الناقوس. وعلينا أن لا نحوّل كنائسهم إلى مساجد وليس لهم إنشاء كنائس جديدة.

٦- ولتجار أهل الذمة أن يتجروا في البر والبحر، وعليهم أن يدفعوا ضريبة الجمرك حسب العرف، وهم مصونون من أي تدخل.

٧- لا نأخذ أولادهم للجيش ولا نجبر أي شخص منهم للدخول في الإسلام بدون رضاه.



٨- ولهم أن يختاروا رئيس جماعتهم لتمشية مصالحهم.

٩- وهم مصونون من أي عمل إجباري ومن أي عمل دون أجرة.

كما أعطى السلطان محمد الفاتح البطريقَ حقوقاً أكثر مما أعطته الدولة البيزنطية. فإنه دعا البطريق "كناديوس" وسماه "رئيس جماعة الروم". وبذلك منحه منصباً دنيوياً وإدارياً بجانب منصبه الروحاني. وكان البطريق يتمتع بمنصب "الباشا"، حيث خصص له محافظون لحراسته، وإنه كان من أعضاء الديوان السلطاني ممثلاً عن المسيحيين.

ومن جهة أخرى دعا السلطان بطريق الأرمن في "بورصة" إلى إسطنبول وعينه رئيساً لجماعات الأقليات من السريان والقبط والغجر إضافة إلى رئاسته لجماعة الأرمن. وقد أدى هذا التصرف إلى هجرة الأرمن إلى إسطنبول إلى أن وصل عددهم في القرن التاسع عشر إلى مائة وخمسين ألف نسمة.

واتصل السلطان محمد الفاتح باليهود ضامناً لهم الحرية الدينية بشرط أن لا يعينوا البيزنطيين. وعندما طرد "لودويج" ملك باويرا سنة ١٤٧٠م و"فارديناند" ملك أراغون سنة ١٤٩٢م اليهودَ، التجأوا إلى الدولة العثمانية ووجدوا فيها المأمن والأمان. كما التجأ قسم من العرب الأندلسيين -في نفس الوقت- إلى

إسطنبول حيث عاشوا كأشقاء مع المسلمين العثمانيين. وكان يهود إسبانيا يتكلمون بلهجة "لادينو"، حيث حافظوا على هذه اللغة قروناً بمسامحة من الدولة العثمانية. وكانت الدولة تريد أن تستفيد من تجربة اليهود التجارية ومن ثرواتهم.

لقد حافظ السلاطين على الكتائب العسكرية المسيحية وأعطتهم "التيمار" (حق تحصيل ضرائب الأراضي المعينة مقابل تجهيز عدد من العسكر)، وبذلك استفادت الدولة من قوتهم في حروبها. ومما يجدر ذكره أن السلطان محمد الفاتح طبّق الأحكام الإسلامية في أهل الذمة، كما كانت هذه الأحكام معروفة لدى الشعب المسلم. ومع ذلك فإن المجتمعات لا تخلو من الناس المتطرفين. فلما اطلع السلطان على تصرف بعض الناس وإجبار غير المسلمين على الإسلام قال: "ما أجْرأ هؤلاء على هذا الفعل! وهل يرون أنفسهم أحرص على الإسلام من الله؟". وحدث أحياناً أن بعضهم قدم طلباً إلى القاضي معلناً عن رغبته في اعتناق الإسلام، فلما تحقق القاضي من أن هذا الشخص أكره على الإسلام، رفض دعواه وأبقاه على دينه. وهذا مدون في السجلات الشرعية.. وحدث أن مسلماً سبّ الدين المسيحي أثناء مناقشته مع مسيحي، فرُفعت قضيته إلى القاضي فحكم القاضي بأن ينفى هذا المسلم من المدينة.

حقوق أهل الذمة

إن الدولة العثمانية طبقت على أهل الذمة أحكام الإسلام كما ذكرنا آنفاً، ويمكننا أن نلخص حقوقهم كالتالي:

١-الحقوق والحريات الأساسية: كانوا يتمتعون بكل الحقوق، كحق الحياة والعمل وحرمة المسكن وحق السياحة والاتصالات مثل المسلمين. وأما الاستثناء الوحيد هو منعهم من الدخول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. ومنعوا أيضاً في سنة ١٥٨٢م من الدخول إلى منطقة "السلطان أيوب" (المنطقة التي يوجد فيها ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ﷺ صحابي رسول الله ﷺ)، حيث اعتبرت هذه المنطقة من أهم المراكز الإسلامية في إسطنبول. وأسكنت الدولة أهل الذمة في ضواحي إسطنبول في الأحياء المخصصة للروم والأرمن واليهود... إلخ. وقد حدد بعض السلاطين ارتفاع بيوت هؤلاء الأهالي واشترطوا أن يكون ارتفاع بيوت غير المسلمين أقل بقليل من بيوت المسلمين.

٢-لهم الحرية الدينية، أي حرية العبادة والمعبد وتعليم الدين وفتح المدارس الأهلية، إلا أنه كان هناك بعض التحديدات الخفيفة في الشعائر الدينية؛ مثل إظهار الصليب وضرب الناقوس يبقى في داخل المعبد ولا يظهر في الخارج في الأحياء التي كان معظم سكانها مسلمين. وحسب الفقه الإسلامي يستطيع أهل الذمة أن يحتفظوا بمعابدهم القديمة إذا فتحت البلدة صلحاً. وأما إذا فتحت عنوة فالسلطان مخير بين الإبقاء عليها أو هدمها. ورغم هذا الحكم أبقى السلطان محمد الفاتح كنائس إسطنبول كما كانت، وتبعه في هذا الأمر من جاء بعده من السلاطين. وأذن في بعض الأحوال المحددة لإنشاء كنائس وصلوات جديدة (أي معابد اليهود) واشتُرِط إذْن الدولة لترميم المعابد القديمة. وقد بلغ عدد الكنائس مائة واثنتي عشرة كنيسة، وعدد الصلوات ستاً وثلاثين في إسطنبول سنة ١٨٨٥م.

٣-الحرية السياسية والإدارية: لهم حق الدخول في قطاع الدولة كموظفين باستثناء الوظائف التي تخص المسلمين. وليس لذمي أن يكون رئيساً للدولة أو قائداً للجيش أو رئيساً للوزراء أو والياً في الولاية أو قاضياً. كما كان عليهم أن يراعوا النظام العام والآداب العامة مثل المسلمين تماماً. وخلال حكم السلطان سليم الأول تبين للخليفة أن قسماً من الروم حاولوا أن ينظموا حركة انفصالية، وتعاونوا في ذلك مع نصارى جزيرة "مورا"، فأراد أن يأمر المسيحيين أو يخيرهم بين الإسلام وبين الخروج من إسطنبول، فاعترض عليه شيخ الإسلام "علي جمالي" (الملقب بزنبللي) قائلا: "إن جدك أعطاهم الأمن والأمان، فلا يجوز لك شرعاً أن تكرههم على ذلك".

ولما تحققت الدولة أن بطريق الروم تعاون مع أهل جزيرة "مورا" في سنة ١٨٢١م، اعتقلته ثم أعدمته. ثم ضعفت ثقة الدولة في الروم وبدأت تبعدهم عن الوظائف الحكومية ووجهتها إلى الأرمن بدل الروم.

وكانت العلاقات الإسلامية والمسيحية واليهودية حسنة إلى حد كبير منذ بداية الدولة العثمانية، واستمرت هذه الحالة قرونا. ومنذ بداية القرن التاسع عشر استطاع أهل الذمة أن يتعاقدوا مع شركات وتجار أوروبا ووسعوا ثرواتهم ونفوذهم. وبينما كان المسلمون الأتراك منهمكين بالحروب والإدارة، اشتغل أهل الذمة بالتجارة والصناعة. ونتيجة لهذا أصبح الأتراك محكومين اقتصادياً بعد أن كانوا حكاماً.

واجبات أهل الذمة

وبمقابل هذه الحقوق كان هناك بعض الواجبات على أهل الذمة.

أولاً: الجزية وهي ضريبة يختلف مقدارها حسب الظروف، حيث كانت تؤخذ من الرجال البالغين فقط، ولا تؤخذ من النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين والمرضى. وكانت تؤخذ تعويضاً عن الخدمة العسكرية التي كُلّف بها كل المسلمين. ولذلك غُيّر اسمها إلى "بدل العسكرية" في سنة ١٨٥٦م. وإذا ما التحق أهل الذمة بالجيش، فإن الدولة العثمانية كانت تعفيهم من الجزية. على سبيل المثال، سمحت الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدخول المسيحيين في جنوب رومانيا إلى الجيش.

ثانياً: كان الزراع مكلفين بالخراج. وكانت الإدارة العثمانية تعتبر أراضي الأناضول و"الروم إيلي"، أي معظم أراضي الدولة العثمانية من الأراضي "الأميرية" (خراجية)، لذلك كان الزراع كلهم من المسلمين ومن غير المسلمين متساوين في هذه الضريبة.

وثالثاً: كل المستوردين كانوا مكلفين بضريبة الجمرك، إلا أن نسبة ضريبة أهل الذمة كانت أكثر بقليل من ضريبة المسلمين. كما كانت البضائع والأموال التي تستعمل في المعابد الدينية معفوّة من ضريبة الجمرك. وقد خففت جداً هذه الضريبة بالامتيازات التي نالها غير المسلمين منذ القرن السادس عشر.

وكان هناك بعض التحديدات على أهل الذمة:

فهم كانوا لا يظهرون الصليب ولا يضربون الناقوس إلا في داخل الكنيسة. ولا يكون ارتفاع بيوتهم أكثر من ارتفاع بيوت المسلمين. ولا يقلدون المسلمين في ملابسهم ولا يبيعون الخمر ولحم الخنزير إلا في المناطق التي يسكنها غير المسلمين.

وبجانب أهل الذمة الذين كانوا مواطني الدولة، كان هناك المستأمنون من رعايا الدول الأجنبية. وكانوا يتجرون ويتجولون في داخل الدولة للتنزه والاستطلاع تحت حماية الدولة.

وإذا نظرنا إلى أوروبا في تلك العصور فماذا نجد فيها من هذه الحقوق؟ أرغب في هذا الصدد أن أنقل كلام المستشرق "برنارد لويس". فعندما زار تركيا قبل عشرين سنة تقريباً أُجريت معه مقابلة تلفزيونية، وسأله المراسل: "نحن نرى كثيراً من الأوروبيين قد تجولوا وكتبوا مذكرات سياحية داخل الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، في حين لا نجد من الأتراك من كتب عن الأوروبيين؟".

فأجاب "لويس": "لم يكن أي مانع في تلك الآونة من زيارة الأوروبيين الدولة العثمانية، لأن الدولة كانت دولة حقوق وقوانين؛ كانوا يدخلون مستأمنين يتجولون ويتجرون، وكان بإمكانهم أن يجدوا من كل المذاهب من يتكلم بلسانهم، أي ما كان هؤلاء يحسّون بالغربة. أما المسلم فما كان له أن يدخل إلى أيّ بلد أوروبي، إلا إذا رضي بالقتل، بسبب التعصب السائد في تلك العصور في أوروبا".

الحقوق الإنسانية في الدولة العثمانية

والدولة العثمانية كانت رائدة في حقل الحقوق الإنسانية الأساسية، ولا سيما في الحرية الدينية كما قال "غيبون": "لا يستطيع أحد أن يعترض على أن الدولة العثمانية هي الدولة الأولى التي اعتبرت مبدأ حرية الأديان كحجر الأساس في نظامهم".

لندع أوروبا في تلك القرون جانباً وننظر إلى أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين؛ فرنسا التي تدّعي أنها مهد الحرية والتي استولت على الجزائر في ١٨٣٠م وبقيت فيها ١٣٢ سنة، ماذا قدّمت للجزائريين من تلك الحقوق؟ فهل يمكن أن نجد وزيراً بل نائباً من الجزائر في برلمان فرنسا؟ لا أبداً.

أما إذا نظرنا إلى الدولة العثمانية فيمكن أن نجد أكثر من خمسين شخصاً من غير المسلمين ما بين وزير ونائب.

وهذه المقارنة توضح لنا كل شيء، إذ نوجزها بأن الدولة العثمانية قصرت صلاحيتها على المجتمع؛ في الحكم والأمور المالية والجيش، وأودعت كل ما وراء ذلك من التعليم والتربية والضمان الاجتماعي والأمور الدينية والأحوال الشخصية وإدارة النفوس والإعلام للمسلمين ولغير المسلمين، إلى الشعب الذين كانوا يديرونها على أساس التنظيمات الدينية والمذهبية، كما أودعت أوقافهم المختلفة. وكان غير المسلمين يُجْرون أمر النكاح والطلاق والنفقة والميراث والوصية داخلَ جماعاتهم في محاكمهم الخاصة. والدولة كانت تنفذ هذه القرارات كما وردت. وكان بإمكانهم أن يفتحوا مدارسهم ويضعوا برامجها ويختاروا مدرسيها بكل حرية.

وبسبب الإهمال في مراقبة تلك المدارس، بدأ يدب فيها الفساد اعتباراً من القرن التاسع عشر. والسبب الأساس يرجع إلى عدم وجود الأشخاص الذين يتقنون اللغات الأجنبية التي كانت لغة التدريس في تلك المدارس والكليات. ولهذا الخلل فإن معظم الأمور الخارجية والدبلوماسية بقيت في أيدي الأقليات غير الإسلامية.

يبدو أن الدولة العثمانية ركزت على وحدة أراضيها وعدم

تجزئتها أكثر من الوحدة الثقافية. ولما لم تستهدف الدولة سياسة الوحدة في اللغة والثقافة لم تتحقق المواطنة المطلوبة بين المسلمين وغير المسلمين. ولذلك لم تستطع الدولة أن تحوّل العلاقة بينها وبين رعاياها إلى علاقة مستمرة باقية. والحقيقة أن الإدارة الذاتية في حقل الدين والأحوال الشخصية، لم تكن لتشكل مانعاً أمام الدولة من تحقيق وحدة المواطنة.

فلو كان باستطاعتها تحقيق حقوق المواطنة مثلما تحقق في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، لربما استمرت الدولة العثمانية، وهذه فرضية. ومن زاوية أخرى نستطيع أن نقول إن الدولة العثمانية استمرت ستمائة سنة، وماذا تكون عاقبة النظم الحالية بعد مائة سنة؟! والله أعلم.

ونستطيع أن نشير هنا كتتمة لهذا البحث، أن قسماً من أحفاد العثمانيين يواصلون تمثيل هذا الموقف السليم في الوقت الحاضر، فلمحبّي فضيلة الأستاذ المربي محمد فتح الله كولن نشاطات كثيرة في هذا المجال. فهم يقومون من جهة بإجراء الحوار مع المثقفين الذين لم يتربوا تربية إسلامية فصاروا ضد الإسلام والإسلاميين، ومع غير المسلمين من جهة أخرى. وأسس الأستاذ محمد فتح الله كولن علاقات طيبة ببطريق الأرثوذكس ومع البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان، ومع رئيس كنيسة اليهود ومع العديد من رؤساء الأقليات الدينية الأخرى. فقد نظمت هذه التجربة عدة مؤتمرات دولية في إسطنبول في أعوام ١٩٩٨-٢٠٠٠م، وفي مدينة "أورفا" عام ٢٠٠٠م. ونظم مركز الحوار في جامعة "جورج تاون" في الولايات المتحدة الأمريكية في شهر مارس من سنة ٢٠٠١م، مؤتمرا لتقييم نشاطات محمد فتح الله كولن. كما حصلت هذه التجربة على ثمرات مفيدة وملموسة من هذا الحوار الذي أسهم في تقليل التوتر بين الثقافات والأديان.

المهم أننا معاشر المسلمين فقدنا قوتنا السياسية والاقتصادية، وليس لنا كلام مسموع في هذه المجالات في الوقت الحاضر. ولكن عندنا ثروة هائلة وقوة عظيمة وهي قوة العقيدة وقوة دين الحق التي لا تنفد.

ولو اتصفنا بالأخلاق الحميدة والاستقامة التي رأيناها عند أبي يوسف وعند السلطان عثمان ومحمد الفاتح، ولو أظهرنا كمالات الإسلام الأخلاقية، لرأينا نتيجة مثمرة مباركة ولحققنا رسالتنا في الحياة والله الموفق. ■

(*) كلية الإلهيات، جامعة مرمرة بـ"إسطنبول" / تركيا.



المأساة

وحدهما...
كوهن النسيم يمضيان،
والطريق يقطعان...
لا دمعة حزن من وليد،
ولا خفقة قلب من حفيد...
آلامَ الغربة يحييان،
ومصيرهما يجهلان...
ولكنهما يمضيان، ولا يلويان...
جناحا وروحيهما مشرعان،
بهما يسارعان...
إلى سحيق من المجهول يُقْذَفان،
كمَنْ ضاع عمره، واستنفدَ أيامه...
* * *





بين الشام ومكة

جمال الحوشبي*

1

الطريق إلى مكة من أرض الشام طريق تجاري ضارب في القدم، تلتقي فيه روافد الطرق الأخرى الكثيرة من سائر بلاد العرب. وهو طريق عامر ترتاده القوافل العربية، وبخاصة إذا حل فصل الصيف القاسي في جزيرة العرب، ولا يوازيه شهرة إلا الطريق القادم إلى مكة من أرض اليمن في فصل الشتاء.

على امتداد الطريق الشامي في تلك الليلة المباركة كانت السماء صافية، ونسائم الصبا تداعب كثبان الرمل في ضوء القمر. النجوم أخذت تزهر مذ خيَم الظلام، وبدت كأنها على موعد مع مناسبة سعيدة طال انتظارها. ها هي القوافل تلقي بأحمالها لتستريح في عرض الصحراء الباردة، وقريباً من نيرانها الموقدة تجمع نفر من الرحالة يصطلون ويتسامرون، كما هي العادة في ليالي الصحراء. كان الزمهرير قارساً والظلام حالكاً، ولم يخطر ببال أحد من الرحالة أن ينظر إلى السماء حين اخترق السكونَ

المهيب فجأة فرسٌ مجنّح يطير بسرعة البرق الخاطف قادماً من أرض الشام في طريقه إلى الحجاز.

لم يكن ذلك سوى البراق.. الدابة المباركة التي أعدها الله تعالى لتنقلات أنبيائه ورسله بين قارات العالم. لكنها المرة الأولى التي يشاهد فيها محلقاً فوق سماء الجزيرة منذ انقطاع الرحلات المتكررة للخليل عليه السلام بين مكة وبيت المقدس. فمَن النبي الكريم الذي امتطاه تلك الليلة؟ وأي مهمة عاجلة جاء منها؟

كان الراكب في تلك الليلة المباركة "محمد بن عبد الله" النبي القرشي ﷺ، وقد عاد للتو من بيت المقدس بعد أن أقيمت على شرفه في ملكوت السماء أعظم مراسم الاحتفاء لكائن بشري بعد آدم عليه السلام. غير أن قصة التكريم المحمدي هذه -التي اكتمل تتويجها في ليلة الإسراء والمعراج- تم التمهيد لها قبل ذلك بكثير، بل إن فصولها تعود إلى الأيام الخالدة الأولى في تاريخ النبوات، ولعل أظهرها يومان مشهودان عمرت بهما بطاح مكة وشعابها.

أشرقت شمس اليوم الأول على بيوت مكة مع مقدم شيخ وقور متوجه صوب بيت إسماعيل عليه السلام يتفقد ذريته ويتعهد أهل البيت. كان ذلك إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام. أما المهمة التي جاء من الشام لأجلها فمباركة المحضن الصالح وتزكية المنزل الذي ستنتقل منه السلالة الطاهرة التي سيخرج منها الغلام الهاشمي عليه الصلاة والسلام. وفي ضحى اليوم الآخر كان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام يحدان حدود البلدة المباركة، ويخطان الأصول الكبرى لدعوة النبي الخاتم الذي سيظهر منها، وهما يرفعان القواعد ويدعوان الله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٢٧-١٢٩).

إن الله ﷻ يخلق ما يشاء ويختار. وقد نظر في قلوب العباد فاصطفى قلب سيدنا محمد ﷺ منها، ثم حفظ نسله في رحم الغيب وتنقّل به في محاضن الطهر جيلاً بعد جيل.. ما بين بابل ومصر وإيلياء، ثم اختار له من أرض الحجاز خير دار. ومن جوار زمزم في الوادي المبارك دنت ساعة الرحمة ونبعت عين الحياة، فولد الهدى ﷺ سالماً من النقص، محفوفاً بالتشريف، ومكلوءاً بعين الرعاية والتبجيل.

ومنذ اللحظة الأولى يسند الله تعالى مهمة رعاية الغلام وهدايته وكفايته إليه وحده دون سواه. وبعد أربعين عاماً يرفعه إلى أعلى المقامات ويكرمه بأشرف الكرامات ليصبح الفتى الهاشمي رسول الله وخاتم النبيين. وحين انقطع الوحي يسيراً عنه في مبدأ النبوة، وزعم من كفر بأن ربه قلاه تنزّل الوحي الكريم بقَسَم الرب العظيم مذكراً بلسان المحبة والحفظ: ﴿وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۞ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ۞ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾(الضحى:١-٨). وتدنو ساعة التكريم الأعظم في ليلة الإسراء والمعراج بعد عشرة أعوام عطرة من التشريف والكرامة.

موعد قرب زمزم

بعد الخروج من حصار الشعب المجهد الشاق الذي دام ثلاث سنين، فقد النبي ﷺ اثنين من أعز المقربين إليه في أقل من ثلاثة أشهر؛ عمه الرحيم الذي كان يحميه، وزوجته الحنون التي كانت تواسيه. وما هو إلا أن تجرع القلب الكريم مرارة الفراق، واعتصر الفؤاد لألم الوحدة حتى تنزل الأمر الإلهي بإحضاره إلى ملكوت السماء، ليذوق حلاوة الوصل في جوار ربه وليرتفع في مقامات العبودية والتشريف. كان الأمر يفوق الخيال غير أنه حقيقة.

لقد سلك هذا الطريقَ التجاري في شبابه قبل البعثة مراراً، وهو يعلم يقيناً أن رواحل العرب تسير فيه شهراً للوصول إلى الشام، ومثله في الإياب منه إلى مكة. لكن ها هو الآن يرى امتداد الطريق يطوى أمامه كالنهر المتعرج، وذلكم مسجد إيلياء يتراءى أمام بصره. أيعقل هذا؟ لقد قطع المسافة كلها في لمح البصر. ومن جوار المسجد يرتقي به أمين الوحي جبريل عليه السلام إلى أعلى متجاوزاً به طبقات الغلاف الجوي، الذي تقطع رواحلُ الغرب الحديثة الطريقَ إليه في ساعات رهيبة ومخيفة، وتعود منه كذلك. ها هو يعبُر المجرة الشمسية، مخلفاً وراءه السدم والأفلاك الكونية ليصعد إلى هناك، حيث أبعدُ نقطة عن عالم الأرض تنقله إلى عالم السماء. ومن باب السماء الأولى يتنزل الأمر الإلهي بالسماح به ليرقى في ملكوت السماء الأعلى، متنقلاً بين مراسم الاستقبال العظيم الذي جمع له فيه من كل سماء مقربوها، والتقى بأشرف ساكني السماء من أنبياء الله تعالى ورسله؛ آدم ويحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى عليهم السلام. وفي السماء السابعة استقبله أبوه إبراهيم عليه السلام وسلم عليه. ثم رقي إلى هناك!

حيث لم تطأ قدم قط ولا خفق جناح، وشاهد من العوالم الباهرة ما يعجز عنها الوصف، ولا يفيها بديع الرصف سوى ما ورد في حديث الرب سبحانه وهو يخبر عما جرى هناك بقوله جل شأنه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۝ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(النجم: ١١-١٨). ثم عاد سيدنا محمد ﷺ من ليلته دون أن يشعر بعودته أحد من أهل مكة.

مقدمات الحدث العظيم

كانت التهيئة الإلهية للجسد الطاهر دقيقة لكي يتحمل ما سيعرض له في هذه الرحلة من عوالم لا طاقة لآدمي بتحملها؛ فبعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة نزل جبريل عليه السلام بأمر ربه إلى الحبيب المصطفى ﷺ ففرج عن سقف بيته، ثم شق صدره وأجرى له عملية جراحية ربانية لم يفقد فيها قطرة دم شريفة واحدة. غسل خلالها صدره الشريف بماء زمزم، ثم جاء بطشت من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدره ثم أطبقه وأعاده من جديد كما كان، بل أحسن مما كان.

بعدها أخذ جبريل عليه السلام بيده ﷺ إلى الخارج ليريه دابته التي ستقله إلى المسجد الأقصى في أرض الشام، قال ﷺ: "أُتيت بالبراق؛ دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس" (متفق عليه). وفي أرض النبوات ومنبع الرسالات أظهر الله تعالى فضله على أهل الأرض قاطبة؛ فعند وصوله ربط البراق بالحلقة التي كان يربط فيها الأنبياء، ثم دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم أتاه جبريل بالمعراج ليصعد فيه فلما استوى عليه صعد به إلى السماء. وقد شهد تلك الليلةَ بِطْرِيقٌ من المقربين لهرقل ملك الروم، وكاد هرقل نفسه أن يسلم بسببها؛ فبعد هذه الليلة المباركة بقرابة عشر سنين قدم دحية الكلبي رضي الله عنه بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل. فلما انصرف دحية رضي الله عنه، أمر هرقل بإحضار من بالشام من تجار مكة، وكان هرقل وافر العقل، فسأل عن أقربهم من محمد ﷺ، وكان أبو سفيان، فقال له: هل جربتم عليه كذباً؟ فاجتهد أبو سفيان أن يحقر من أمره ويصغره عنده فلم يجد ما يسعفه. قال أبو سفيان: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه كذاب؟ قال: وما هو؟ قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا، أرض الحرم، في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبطريق إيلياء عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلياء: قد علمت تلك الليلة. قال: فنظر إليه هرقل وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني لمعالجته فغُلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا سقط عليه النجاف والبنيان، لا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت، وتركت جانبي الباب مفتوحين، فلما أصبحت غدوت عليهما، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد منقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، قال: فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة بمسجدنا.. (مقتبس من الحديث الطويل الذي رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة).

إن الله ﷻ يخلق ما يشاء ويختار. وقد نظر في قلوب العباد فاصطفى قلب سيدنا محمد ﷺ منها، ثم حفظ نسله في رحم الغيب وتنقل به في محاضن الطهر جيلاً بعد جيل. ومن جوار زمزم في الوادي المبارك دنت ساعة الرحمة ونبعت عين الحياة فولد الهدى ﷺ..

فلما خرج ﷺ من المسجد قدّم إليه جبريل إناء من خمر وإناء من لبن ضيافة للزائر العزيز، وطلب منه أن يختار، قال ﷺ: "فاخترت اللبن"، فقال جبريلُ عليه السلام: أصبت الفطرة، "ثم عرج بي...". (رواه أحمد). وفي السماء أظهر الله تعالى شرفه ورفعته ﷺ، حيث بلغ به مكاناً علياً لم يصله ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبلّغه ربه سدرة المنتهى، وهي التي ينتهي إليها ما يعرج به الملائكة من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها، وهناك رأى جبريل عليه السلام مرة أخرى على هيئته التي خلقه الله ﷻ. ثم جاوز به الحد الذي لا يتخطاه جبريل أمين أهل السماء نفسه. وفي تلك البقعة المباركة الشريفة سمع صريف الأقلام،

وفرض الله تعالى عليه وعلى أمته الصلاة، و لم يكن أحد قط أقرب منه ﷺ. ثم هبط إلى بيت المقدس والظلام لا يزال حالكاً، ودخل المسجد، قال ﷺ: "فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا؛ فأخذ جبريـــل عليه السلام فقدمني فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمد أتدري مـــن صلى خلفك؟ قلت: "لا". قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله ﷻ" (رواه أحمد).

وفي هذا دلالة على أنه ﷺ هو الرئيس المقدم والإمام الأعظم لســـائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، حيث قدمـــه جبريل عليه السلام ليكون إماماً لهـــم في دارهم التي هي معدن النبوات وأرض الرسالات. ثم خرج من بيت المقدس فحل رباط البراق وركبه عائداً إلى مكة.

في طريق العودة

ها هو ذا الكوكب الأخضر يَسبح في ملكوت الكـــون الهائل، وبحارُ الســـدم والأفلاك والمجرات تحيط به. وها هي جزيـــرة العرب يقطع وشـــاحها المظلـــم خيـــوط القمر المنسدلة في هدوء، وذاكم هو الخط الترابي الطويل الذي شـــهد سماؤه أعظم رحلة بشرية على الإطلاق، وعلى البعد تُرى قوافل العرب تسير فيه، وأخرى تستريح حوله.

لم تغب عن ذاكرة سيدنا محمد ﷺ مشاعر الحنين في رحلاته الأولى كلما يممت المطايا وجوهها قِبل مكة في طريق عودتها من الشـــام، وكلما رفعت الإبل أعناقها في سيرها الطويل تستشرف جبال مكة من بعيد، شوقاً إلى نسائم البيت وعبق أذاخره، وهي محملة بالبضائع والتحف الشامية النادرة.

غـــير أن هذه الرحلة الإيمانية -خارج حدود الحجاز، وبعيداً عن كوكب الأرض- كانت الأولى للفتى الهاشمي بعد أن أكرمه الله تعالى بالرســـالة. وهي المنطلق الحقيقي الذي انتقلت الدعوة بعده خارج مكة لتعم أرجاء الجزيرة العربية ثم انتشـــرت بشكل مذهل في غضون سنوات لتعمّر جميع أقطار الأرض.

وعلـــى الرغم من درجة الظهور والريادة للطريق الذي يربط بين مكة وبيت المقدس، فقد شـــهد تاريخ النبوات تقارباً كبيراً كذلك بين المســـجد الحرام والمســـجد الأقصى. حتى إن سورة الإســـراء ذاتها قرنت بحديث طويل وجميل عن بني إسرائيل، وفي مطلعها قوله جل شأنه: ﴿سُـــبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْـــجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۞ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾(الإسراء:١-٢)، بل إن الاسم الآخر لسورة "الإسراء" هو "بنو إسرائيل".

وقبـــل أن يطبق البراق جناحيه، ويهبـــط بجوار البيت العتيق ليعود الراكب الكريم إلى فراشـــه الذي لا يزال ســـاخناً، كان الرســـول ﷺ قد اخترق بروحه وجســـده حاجز الزمن في تلك الليلة المقمرة؛ وعدلت الســـاعاتُ القليلة الماضية الـــتي قطعها ملايينَ السنين الضوئية بمقياس البشر. رأى خلالها من المَشـــاهد والعوالم ما لا قدرة للعقل البشري على إدراكه، وأعاد تاريخ النبوة حياً في القلوب، قلوبِ المؤمنين به مـــن أمته الذين يصدقون بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وبقيةٍ قليلة ممن آمن به من أهل الكتاب الذين أمرنا الله سبحانه بالإحسان إليهم، ولين الحديث عند الحوار معهم؛ لأنهم صدقوا بما أنزل الله تعالى على رســـله، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَـــنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْـــزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْـــلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦).

إن هـــذه الرحلـــة الإيمانيـــة (الإسراء) كانـــت الأولى للفتى الهاشمي بعد أن أكرمه الله تعالى بالرسالة. وهي المنطلق الحقيقـــي الذي انتقلـــت الدعوة بعده خارج مكة لتعم أرجاء الجزيرة العربية ثم انتشرت بشكل مذهل في غضون ســـنوات لتعمر جميع أقطار الأرض.

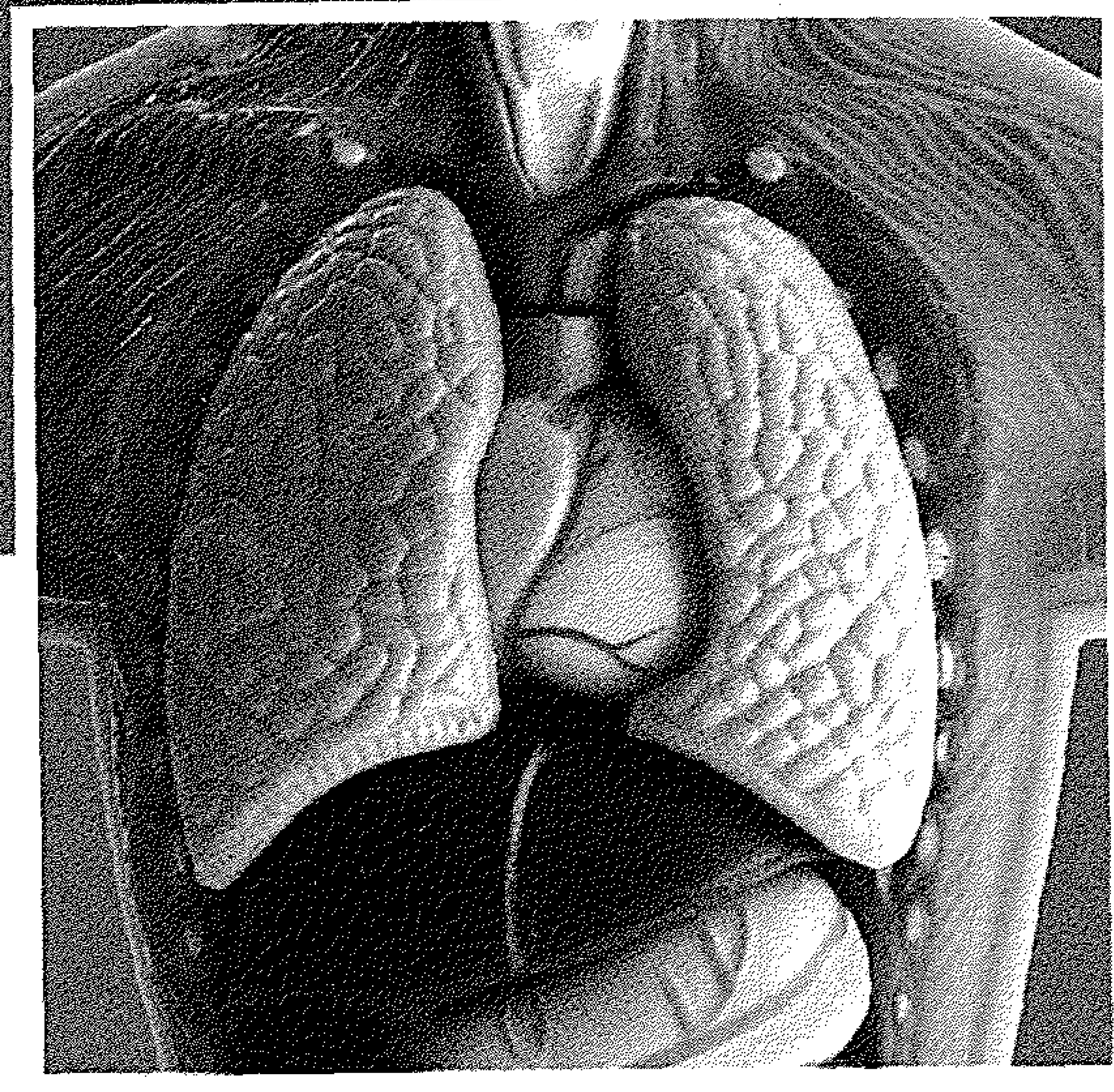
ولا يفوق التقارب بين المسجدين، والطريق الذي يربط بينهما من حيث الظهور والريادة إلا ذلك الترابط الكبير بين سيرة النبي المكي الخاتم من ذرية إسماعيل عليه السلام، وســـيرة النبي المقدسي الخاتم من ذرية إسحاق عليه السلام. ■

(*) مدير تحرير مجلة "مكة" / المملكة العربية السعودية.

عنـد الأثـر الفنـي لا تتوقـف.. وبـه لا تظـل منبهـرا.. فتـش عـن الـروح العظيـم مـن ورائـه.. وعن اليـد الصنـاع التـي صاغتـه.. وعـن الرسّـام الـذي رسـم.. والنحـات الذي نحت.. والشـاعر الذي شـعر.. والناثر الـذي نثر.. ففـي روح الإنسـان يرقـد الجمـال كلـه.. ويعتلـج الفـن كلـه..

***

أنا رئة عبد الله



أ.د. عرفان يلماز*

عزيزي عبد الله... أسند ظهرك للخلف ودعني أمط جسمي قليلاً لأتسع وأملأ جوفي بالهواء. فكلما امتلأتُ بالهواء فإن دماغك سيعمل أحسن، ومن ثم ستعي كلامي بشكل أفضل. وإن سألتني عن العلاقة بينهما أقول، بأن كل عضو في جسمك له علاقة بكل شيء، بل بكل الكائنات. فلكي يعمل دماغك ستحتاج إلى السكر، ولكي تؤمّن الطاقة للخلايا العصبية تحتاج إلى حرق السكر، ولحرق السكر تحتاج إلى أوكسجين، والعضو الذي يؤمّن دخول الأوكسجين هو أنا (الرئة) وسأتحدث لك عن نفسي في هذا العدد.

في الحقيقة إن الحديث عن النفس أمر ليس محموداً، ولكن ما أفعله لا يعد حديثاً عن النفس. فكل ما أبغيه هو الحديث عنه ﷻ وبيان جمال قدرته في إبداعي على أكمل وجه. لذا لا يوجد في جنباتي أي موضع للتكبر أو الاغترار، فكل شيء له ﷻ؛ كل ما أملكه وكل ما أقوم به وكل ما عليّ من التفاصيل والدقائق والصنعة البديعة التي لا تحيطوا بها علماً، كلها له جلّت قدرته. ولكي تواصل حياتك فإن الله ﷻ قد وظفني في أعمال ووضعني في بدنك العجيب.

لقد أودعني الله في قفص صدرك الذي أحيط بأضلاعك وعضلات صدرك على شكل كيسين هوائيين أيمن وأيسر، أو بعبارة أدق، على شكل منفاخ. كما أني أرتبط من الأعلى بالقصبة الهوائية والبلعوم، وأنفصل عن الأعضاء الداخلية للبطن الموضوعة في الأسفل بالحجاب الحاجز العضلي.

التنفّس الأول للرئة

إن أول نفس استنشقتُه كان مع اللحظات الأولى لميلادك. ومنذ تلك اللحظة ما زلتُ أتنفّس دون توقف، حتى أثناء نومك فإني أزودك بالأكسجين الذي تحتاج إليه، وذلك بتلقي الأوامر آلياً من "البصلة السيسائية" أي، المركز المحرك الوعائي والمركز التنفسي.

إن قريني في العمل هو القلب الذي بدأ نشاطه قبلي بكثير حين كنتَ في الشهر الأول في رحم أمك. في تلك الفترة كنتُ أستريح و لم يكن تكويني قد اكتمل بعد، أي لم تبرز الحاجة إليّ بعد. إذ كانت أمك -التي تجرح قلبها أحياناً- تزودك بدمها، بكل احتياجاتك من الغذاء والأوكسجين. ولو قمتُ أنا بشيء من هذا القبيل، لَاختنقتُ على الفور، لأنك كنتَ تسبح في مادة سائلة في رحم أمك، ولو حاولتَ التنفس لامتلأتُ بهذا السائل واختنقنا سوية.

إن أول نفس أستنشقه عند الولادة مهم جداً وإنه صعب للغاية، لأن القصبة الهوائية عندك تكون أضيق بكثير من حالتها

الاعتيادية، إلا أن عدد الحويصلات الرئوية التي يتم خلالها تبادلُ الأكسجين مع شعيراتك الدموية كثيرة جداً بالنسبة إلى حجمي، وهـذا ما يعوّض ضيق القصبة الهوائيـة عندي. عند أول حركة لي، وبعـد أن يمتلئ جوفي بالهواء، أقوم بالضغط على الشـرايين والأوردة القادمة إلي من القلب، في حين يبقى شـرياني المرتبط مباشـرة بالشريان الأبهر خارج نطاق العمل، كما ينغلق الصمام بين الأذينين وينفصل عن دورة الأم. وإذا ما بقي الصمام مفتوحاً دون انغلاق، فإن الدم المؤكسج يختلط بالدم الفقير بالأكسجين ويسبب "المرض الأزرق" أو الزرقة القلبية، حيث يرجع لون الطفل الأزرق إلى أن الـدم الأزرق لا يجد مفراً من أن يتجه إلى البطين الأيسـر، والشـريان الأورطي (الأبهر) ويختلط بدمهما الأحمر، ويوزع هذا الدم الممزوج إلى الجسم فيعطيه اللون الأزرق.

وتظهر الزرقة الناتجة عن نقصان الأوكسـجين في الأنسجة على المدخنين أيضاً. ولا شـك أن أكبر عدو لي هو التبغ الذي يحتوي على مئات المواد السامة والضارة. ومن إحدى هذه المواد، "مونوكسيد الكربون" أو استنشـاق منتوجات غازية تتحد مع مادة الهيموغلوبين (خضاب الدم) وتعيق انتشار الأوكسجين في الجسم. ولهذا فإن شـفتي المدخنين تبدو مائلة إلى الزرقة. والحق يقال عجزنا -رغم محاولاتنـا الكثيفة- عن مقاومة تلوث الهواء الذي بدأ يزداد بسرعة في عصرنا هذا، فإذا بنا نراهم (المدخنين) قد زادوا الطين بلة بتدخينهـم، الأمر الذي يجعلني أجن. كيف يمكن لإنسان أن يكون جاهلا لهذه الدرجة!

آليات حماية الرئة

لقد خلقني ربي ﷻ بطريقة مميزة وفريدة لاستنشاق الهواء وإدخاله إلى الدم بواسطة الضغط العالي، ثم طرح فضلات غاز ثاني أكسيد الكربون الموجود في الدم إلى الخارج قبل أن يرتفع إلى مسـتوى يؤدي إلى اختناق الجسـم. ولأنه ﷻ يعلم أن الهواء سيتلوث إلى هذه الدرجة، فقد زودني ببعض الآليات لحماية نفسـي. ونتيجة لذلك فإني أمارس عملي دون أي عطل لمدة طويلة. إلا أن ازدياد المواد الصناعية السامة والغازات بشكل كبير، جعلني لا أقدر على مقاومة الأخطار بسـهولة. ثم إنهم ينفثون في وجهي دخان التبغ الذي قيل: إن فيه أكثر من أربعة آلاف مادة سامة ومختلفة.

إنهم أدرى بأنفسهم.. فلو أني فقدتُ المقاومة وضعفتُ عنها، لا أدري كم سـأفتح عليهم من أبواب المشاكل. كثيراً ما كنت أصاب في الماضي بمرض السـل، أما اليـوم فإنني أفضّل الإصابة بمرض السرطان تماشياً مع الموضة!.. وكأن في الأمر دعابة أليس كذلك؟ ماذا أفعل؟ وهل يمكن أن أصاب بالسـرطان بإرادتي؟ فكما أن هذا المرض المسمى بالسرطان يمكن أن يصيب أي عضو في أي لحظة، فإنه يمكن أن يصيبني أنا أيضاً أكثر من غيري، لأني على تماس مباشـر بالهواء دائماً. فلو أني توقفت عن استنشـاق الهواء لَلفظتَ أنفاسك الأخيرة على الفور. ولهذا ينبغي عليك أن تنتبه إلى نظافة الهواء في محيطك.

في الحقيقة أن باطن المجاري الهوائية التي تنقل الهواء إلى داخلي والتي تسموها القصبة الهوائية والشعيبات الهوائية، بُطِّنَ بشعيرات تلتقط وتدفع ذرات الغبار والمفـرزات المخاطية نحو الحلق لكي يخرج بعد ذلك بواسـطة السـعال، حيث تعمل هذه الشعيرات طوال الليل أثناء نومك، وتَدفع الأغشيةَ المخاطية التي التصقت بها ذراتُ الغبار والتي استنشقتها نهاراً نحو حلقك، وتقوم في الصباح بطرح كتلة الغشـاء المخاطي الموجودة في حنجرتك وتتخلص من البلغم. أما المدخّنون فيقتلون ما بين ٨٠٠-١٠٠٠ خلية من شعيراتي الرئوية في كل مرة يسحبون فيها الدخان إلى جوفي. وبعد مدة أعجز عن تكنيس جزيئات المواد السـامة الواردة مع الهواء، كـذرات الكربون، والكبريت، والرصاص... ذلك لأن خلايا الأهداب أو شعيراتي الرئوية داخل القصبة الهوائية، تموت مع مرور الأيام وتصل إلى حالة لا تُحتَمل فتغير هيكلها وتكوينها. ومن ثم فإن ذرات الغبار الموجودة داخل الهواء المتلوث، تَسُدّ مجرى الهواء كما تُسَـد مجاري المدافئ ووصلات المداخن في منازلنا. ولعلي أُصاب نتيجة ذلك بمرض الانسداد الرئوي المزمن أو السرطان.

عزيزي عبد الله... أعرف أنك لا تدخّن، ولكنني أردتُ أن ألمس جوانب الموضوع لتقوم بشـرحه لبعض أصدقائك، فأرجو ألاّ تملّ مني.

التكوين المتكامل البديع

وفي هذا الصدد أودّ أن أشرح لك بعض البدائع الفنية في تكويني المتكامل البديـع. كما تعرف أنه إذا اجتمعـت العناصر الفنية والجماليـة والوظيفية في أثر ما، فإنها تعطيه ميزة ذات معنى. وإن تكويني المتكامل -ككل أصدقائي العاملين في بدنك- يهدف إلى التلاؤم مع الوظيفة المهمة التي سأقوم بها. بتعبير آخر، فإنه يستحيل اجتماع الخلايا والجزيئات فيّ عن طريق الصدفة، فإنه يسـتحيل إيجاد جزيئـة واحدة من جزيئات البروتينات المختلفة الداخلة في تركيبـي من تلقاء نفسـها ودون إدراك. إن الاحتفاظ بالضغط العالي لأوكسـجين الهواء الداخل إلى جوفي، ونفاذ الأكسجين من غشائي أثناء الانتشار، ثم النفاذ من أغشية الشعيرات الدموية

العالقة والامتزاج مع جزيئات خضاب الدم، ونفاذ ثاني أوكسيد الكربون ذي الضغط العالي إلى جوفي من نفس الأغشية، وقيامي بطرحه إلى الخارج مع كل زفير وشهيق لـك أمر لا يمكن أن يتحقق بسهولة. إنك تتنفس ١٣-١٤ مرة في الدقيقة، وفي كل مرة تتحقق هذه العملية. يجب عليّ عند الانتفاخ والانكماش أثناء الشهيق الذي تجريه غالباً دون إدراك، أن أكون في حالة مرنة جداً. وإن أهم خاصية أمتلكها -بالإضافة إلى هذه المرونة- هي إظهار أوسع سطح في أصغر حجم. إن الله ﷻ وضع في صدرك الضيق أغشية تقارب مساحتها ١٠٠ متر مربع، أو يقارب خمسين ضعفاً من جلدك الذي يلف جسمك، وبفضل هذا منحك مساحة واسعة تتيح انتشار الغازات. في حين ينبغي على الغازات هذه، من أجل النفاذ من أغشية الجهاز التنفسي، أن تبقى رطبة على الدوام ولا تجف أبداً. إن سطوح أغشية الجهاز التنفسي الرطبة، ممتازة جداً لانتشار الغازات؛ ولكي لا تلتصق الأغشية الرقيقة ببعضها، ولكي لا يتعرض الجهاز التنفسي للخطر بسبب التوتر السطحي والخاصية الشعرية، يفرز إلى داخلي مادة سائلة تحتوي على مواد سطحية. ولو لم تكن هذه المادة السائلة لالتصقت الأغشية الرقيقة ببعضها ولفشلت عملية الانتشار.

القصبة الهوائية

إن الهواء الداخل إلى جوفي مثل الطرق الثانوية المتفرعة عن الطريق السريع، فهي تضيق وتتفرع وتنتهي بحجيرات مغلقة -تسمى الحويصلات- فتكوّن بذلك شبكة. وإن الهواء الداخل من الفم والأنف يلتقي في الطريق السريع المسمى القصبة الهوائية، حيث يبلغ طول القصبة الهوائية في الشخص العادي حوالي ١٥ سم. وأودّ ها هنا أن أقول لك شيئاً مهماً بخصوص عمل خاطئ تقوم به في كثير من الأحيان، وكان الأولى أن يتكلم عنه العضو الذي تسمونه الأنف. إلا أني سأتطرق للموضوع بشكل طفيف لعلاقته بي.

إنك يا عبد الله كثيراً ما تخطئ في طريقة التنفس، إذ عليك أن تستنشق الهواء من الأنف وتطرحه من الفم، عندها سيسخن الهواء الوارد من أنفك مباشرة ويترطب، ومن ثم ستتخلص من ذرات الغبار فيه. إذا فعلتَ هذا فإنـك لا تعرّضني للضيق ولا تصاب بالزكام أو بالتهابات الجهاز التنفسي العلوي. أما إذا استنشقتَ الهواء البارد والجاف من فمك، فـإن ذرات الغبار والجراثيم ستدخل جوفي وستسبب الحساسية، بل قد يصل الأمر إلى الالتهاب الرئوي.

كان أبوك وأمك حين كنت صغيراً يحافظان على بقاء مجرى تنفس أنفك سالكاً، فيقطران فيه المصْل الفيزيولوجي لئلا ينسد. وأعتقد الآن أنك عرفتَ سبب سهولة مرض الأطفال الذين ينامون وفمهم مفتوح بسبب وجود الزوائد اللحمية في أنفهم.

عمّ كنا نتحدث وكيف خضنا هذه المواضيع؟ نعم.. نعم تذكرتُ، كنت أتحدث عن طرق الهواء الوارد إليّ.

الإنذار المبكر

إن أطراف القصبة الهوائية التي تُوصِل الهواء إلي -كما هو الحال تماماً في المِدخنة- تتكوّن من ١٦-٢٠ حلقة غضروفية على شكل أنبوب أسطواني. ولئلا تظهر مشكلة بسبب وجود البلعوم والقصبة الهوائية جنباً إلى جنب، فـإن آخر حلقة من الحلقات الغضروفية المبنية على بعضها البعض، أكملت بحلقة نسيجية مرنة بدل الغضروف القاسي. ومن ثم فإن غضاريف القصبة الهوائية لن تعيق ابتلاع اللقيمات أثناء الطعام، إذ توجد فوق وبجوار الحلقات الغضروفية ألياف عضلية، حيث توسع أثناء شهيقي القصبات الهوائية بتمدد الحلقات الغضروفية وتضيِّقها.

مرت عليك أوقاتٌ نبّهتك فيها عن طريق السعال. ربما أزعجتك بذلك، ولكن لو أنني لم أضيق قُطر القصبة الهوائية وأقلص أحزمتي العضلية حتى تصل إلى ما تحت السدُس، و لم أتسرع بالتنفس من خلال القصبة الهوائية الضيقة هذه، لما استطعت لا أستطيع طرح بعض الأجسام الغريبة التي تدخل جوفي فجأة (كذرات الغبار وبعض القطع الصغيرة)، عندها ينسد جوفي ويؤدي ذلك إلى انعدام الهواء وبالتالي إلى موتك في آن واحد. ولهذا السبب فإن الانفجار السريع الذي تسمونه السعال، يعني التخلص من ذرات الغبار الضارة في داخلي. وقد وضع ربي ﷻ جهازاً صوتيا في الطرف الأمامي لقصبتي الهوائية العريضة جداً والتي تشبه الطريق السريع، وهو جهاز رائع مذهل! ولو قمتُ بالحديث عنه لما كفتني الصفحات. فالهواء الوارد إلي والهواء الفاسد الصادر عني، يحرك الحبال الصوتية عندما يمر من خلال هذا الصندوق الصوتي، ويصدر النغمات الجميلة والأناشيد الرائعة والأحاديث التي تبهج الحياة.

الشعبة الهوائية

إن الهواء الوارد من القصبة الهوائية ينقسم إلى فرعين هما الشعبتان الهوائيتان التوأمتان يمنى ويسرى. وفي الأصل لا نُعتبر توأماً، لأن التي تقيم في الطرف الأيمن تتكون من ثلاث قطع، أما التي تقيم في الطرف الأيسر فتتكون من قطعتين. وكأني أسمع سؤالك،

وما الحكمة من ذلك؟ أستطيع أن نقول لك: إن شقيقتي الشعبة اليسرى خلقت لتتيح مجالاً للقلب وليتخذ مكاناً أوسع ويعمل براحة أكثر، بالإضافة إلى أنه عندما يبدأ السرطان في أي قسم، فيمكن إزالة القسم المصاب فقط بعملية جراحية وبالتالي أستطيع أن أواصل حياتي. وربما هناك حكم كثيرة لا يعلمها إلا ربي سبحانه. وتنقسم الشعبتان الهوائيتان اللتان تدخلان إلى جوفنا إلى ٨-١٠ طرق فرعية دقيقة -كما هو الحال في الطرق السريعة- وكل واحدة من هذه تنقسم إلى فروع أكثر دقة بقطر واحد سم. إن نظام التفرع هذا يشبه منظر شجرة رأسها نحو الأسفل. أما في نهاية هذه الفروع الدقيقة فتوجد شعيبات النظام التنفسي التي تشبه عنقود العنب.

الشعيرات الدموية

وإن آخر نقطة في الطريق هي الكريات التي تشبه الحبات التي تكوّن العناقيد، إذ هي الأجزاء الحياتية الأساسية. كما أن هذه الكريات الصغيرة التي تسمى الحويصلات صنعت من أغشية رقيقة جداً أحيطت بشبكة الشعيرات الدموية. قسمي الوظيفي الأساسي الذي يتم فيه تبادل الغازات موجود هنا. وإن شبكة الشعيرات الدموية التي تلف الحويصلات الرئوية، هي أقسام متفرعة عن شرياني الحامل الدم الفاسد والقادم من القلب (فقير الأوكسجين) وشرياني الذي يجمع الدم النظيف مني (غني الأوكسجين) ويوصله إلى القلب.

توجد طبقتان غشائيتان رقيقتان تحيطان بي وتحميانني؛ إحدى هاتين الطبقتين ملتصقة بي تماماً، والأخرى ملتصقة بالأضلاع الصدرية، وبينهما في الكيس الفراغي مادة سائلة لزجة رقيقة جداً. وأثناء انتفاخي وانكماشي تمنع هذه المادة السائلة اللزجة احتمال كشطي عند احتكاكي بفراغ جدران القفص الصدري. ولولا هذه المادة السائلة لكشط سطحي وانفتح فيَّ ثقب بعد مدة قصيرة جداً. ينبغي على فراغ القفص الصدري أن يتوسع ليفسح لي مجالاً أثناء انتفاخي عند التنفس. فلو لم أجد مكاناً أتسع فيه لما استطعتُ التنفس، ولمتَّ أنت بسرعة. فالشكر للخالق ﷻ الذي صنع قفصاً من الأضلاع لحمايتي، والذي صنع مفاصل مرنة جزئياً تلتوي على الأضلاع، وبالتالي يتوسع فراغ القفص جزئياً ويفسح لي مكاناً. إضافة إلى أن الحجاب الحاجز العضلي الذي يفصلني عن المعدة والأمعاء، يقلل انحناءه ويضغط على الأعضاء الموجودة في البطن نحو الأسفل، مما ينفخ جدار البطن نحو الخارج ويفسح لي مكاناً لأنزل فيه. وبفضل حركة الأضلاع والحجاب الحاجز أتوسع في المكان الذي فسح لي من خلال انتفاخي بملء جوفي بالهواء. إن وجودي معلق في الفراغ الصدري ويتحقق من خلال القصبة الهوائية التابعة لي والشرايين والأوردة.

إن احتمال إصابتي بالأمراض عال جداً نظراً لارتباطي بالعالم الخارجي. ويأتي السعال على رأس القائمة التي أرسل فيها إشارة تحذيرية لإصابتي بالمرض. فأحياناً أُخرج بلغماً مختلطاً بالدم، إضافة إلى أنني أجد صعوبة في التنفس، وأُشعرك بألم في صدرك. عندما ترى هذه الإشارات التحذيرية، ينبغي عليك أن تكون يقظاً جداً، لأن البكتريات والجراثيم إذا ثبتت أقدامها في داخلي، فإنها تتكاثر في الحويصلات الهوائية وتتصلب وتسبب التهابات.

إنني حساسة جداً تجاه الإضرابات التحسسية، فعندما تتلامس جدران العضلات المستوية المتوضعة على جدار الشعبة الهوائية بالمواد الغريبة كغبار الطلع فإنها تتقلص بتأثير إفرازات الهيستامين. إضافة إلى أن الأمراض التحسسية التي تصيب العروق الدموية، تؤثر عليّ جداً لكوني عضواً من أكثر الأعضاء الحاملة للدم. كما تظهر حالة القوة التنفسية عند تقلص عضلات الشعبة الرئوية وعدم إخراج الإفرازات المخاطية التي أفرزها ضد الحساسية، وإنكم تسمونها بمرض الربو. فعندما يمتلئ داخلي بهذه الإفرازات المخاطية التي أُصدرها لحماية نفسي ولا أستطيع إخراجها، أعاني صعوبة في التنفس.

وبمعزل عن هذا، فإنني كثيراً ما أصاب بالأمراض الحادة المزمنة والتهاب الشعب الهوائية وانتفاخ الرئة، حتى إن عصبيتك وانفعالك يؤثر عليّ، إذ أعاني صعوبة في التنفس مباشرة.

لا تؤاخذني يا عبد الله! فمساحتي ضيقة جداً، إذ لا يمكن أن أختصر الحديث عن عمل فني مذهل مثلي في أربع صفحات أو خمس. ولهذا أحيل الباقي إليك، ففي فهمك كفاية. لكن يا قرة عيني، ابتعد عن أماكن التدخين والغازات السامة وأدخنة السيارات. استنشق الهواء بعمق في الأماكن النظيفة وأرسل إليّ أوكسيجيناً كثيفاً، ثم فكر بتمعّن في كل شهقة بصوت "هو" الذي أُصدره وأذكر به خالقنا، وتذكر أنني يمكن أن أتوقف في أي لحظة، فاشكر ربنا العظيم الذي لا نهاية لقدرته. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: محمد ماهر قفص.

محاور أساسية في فهم القرآن

أ.د. علي جمعة*

هناك أساس مهم من أسس تفسير القرآن وهو "أن القرآن يبين بعضه بعضا". ولذا فأول ما ينبغي أن يعتني به المفسر هو أن يجمع المتشابهات ويقرن بعضها ببعض. فرب معنى أجمله القرآن في موضع وفصله في موضع آخر، أو أطلق في موضع وقيد في موضع آخر. ثم إن القرآن ربما تعرض للمعنى الواحد في غير موضع لحكم عالية اقتضت تخصيص كل موضع بالقدر الذي أورد فيه. فإذا ما جمع المفسر كل مواضع وروده تجلى له الهيكل العام الذي أراده القرآن في تلك القضية.

القرآن كله كالسورة الواحدة

وقد علّم رسول الله ﷺ أصحابه ذلك المنهج في فهم القرآن في عدة مواقف. فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾(الأنعام:٨٢)، شق ذلك على الناس، قالوا يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟! فقال: "إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣) إنما هو الشرك" (رواه البخاري).

فقد أطلق لفظ الظلم في موضع فشاع في المعنى المعهود في الظلم في عرف الخطاب، بينما هو مفسر في موضع آخر بالشرك. والذي يجعل الموضع الآخر متعينا للبيان هو الفهم العالي لقواعد الشريعة وكلياتها، ومنهجها في تحديد أسباب النجاة وأسباب الهلاك، مما يعين على إلحاق الآيات بعضها ببعض.

وما زال هذا المعنى بهم حتى صرحوا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة يحمل بعضه على بعض، قال الإمام الرازي في التفسير الكبير: "لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضا، ويبين بعضها

معنى بعض، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو".

وللعلامة الطاهر بن عاشور تحرير جيد في هذا المعنى يمثل ضابطا مهما يجب تأمله في قضية حمل بعض القرآن على بعض، حيث قال في التحرير والتنوير: "وهذا كلام لا يحسن إطلاقه، لأن القرآن قد يحمل بعض آياته على بعض، وقد يستقل بعضها عن بعض، إذ ليس يتعين أن يكون المعنى المقصود في بعض الآيات مقصودا في جميع نظائرها، بله ما يقارب غرضها".

وقد ألف ابن الجوزي كتاباً فيما أجمل في القرآن في موضع وفسر في موضع آخر منه، ونبه ابن تيمية على هذا المعنى في أصول التفسير، وكذا ابن كثير في أوائل تفسيره، وكلامه مأخوذ من كلام ابن تيمية، ثم السيوطي في الإتقان وغيرهم كثير.

وهو قريب مما عرف عند المتأخرين بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم وقد كتب فيه كثيرون.

السنة النبوية أول بيان للقرآن الكريم

وأساس آخر مهم من أسس التفسير وهو "أن السنة النبوية ثاني الوحيين، وأنها نابعة من القرآن وموضحة لمعانيه". فهي أول بيان للقرآن الكريم، وهو بيان يمتاز بالعصمة. فإنه أول كاشف دقيق منضبط ومحفوظ يكشف عن معاني القرآن، ولأنه معصوم وحجة فإنه مكمل للهدى القرآني، بحيث يتكون منهما معا توجه الشرع الشريف في كل مسألة أو قضية، بل قال الإمام السيوطي رحمه الله في "الإتقان": "وقال الإمام الشافعي ﷺ: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن"، وقال أيضا: جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: "إني لا أحل إلا ما أحل الله، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه" (أخرجه بهذا اللفظ الشافي في الأم).

قال الشيخ طاهر الجزائري في "توجيه النظر إلى أصول الأثر": "قال بعض علماء الأصول: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن أو فيه أصله قرب أو بعد، فهمه من فهمه، وعَمِهَ عنه من عمه، وكذا كل ما حكم به، أو قضى به، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده وبذل وسعه ومقدار فهمه، وقال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله".

وقد أدى ذلك كما هو معلوم إلى أن أنشأ المسلمون منظومات كاملة من العلوم الخادمة للبيان النبوي. فنشأت علوم الحديث وعلوم الجرح والتعديل، وأثمرت ذلك النتاج العلمي الفائق الذي لم تعرف أمة من الأمم له مثيلا. وقد نشط الحفاظ لإفراد المؤلفات لما يتعلق بالبيان النبوي القرآني فنشأ ما يعرف بالتفسير بالمأثور، وجمع فيه الحافظ السيوطي جمهرته الضخمة "الدر المنثور، في التفسير بالمأثور" فاستوعب فيها من مصادر واسعة جدا كل حديث أو أثر له وجه تعلق بآية من كتاب الله.

ومن المتأخرين جمع العلامة المحدث السيد عبد الله بن الصديق الغماري كتابا في التفسير بالأحاديث المرفوعة وصل فيه إلى سورة هود.

ولذا فعلى المفسر أن يطلع على ما ورد في كل آية من الأحاديث والآثار، فما كان منها مرفوعا إلى النبي ﷺ حقيقة أو حكما فقد وجب الوقوف عنده واعتباره، وما سوى ذلك فليتأمل. فإن كل واحد من المفسرين كان يحمل معنى الآية على جملة المعارف والعلوم التي انتهى إليه عصره، وأحاط به زمانه، ثم القرآن أكبر من ذلك، وهو مجرد عن الزمان والمكان لا يتقيد بهما ولا بأحوالهما.

علم أصول الفقه

وأساس آخر مهم من أساس التفسير هو "علم أصول الفقه اشتمل على ضوابط فهم النص وتحليله". ولذا فقد وجب على المفسر وذلك لأن أعظم مقاصد المفسر أن يلم بالأدوات والآليات التي يتمكن بها من تحليل التركيب وتفكيك النص وفهمه.

وخدمة النص تحليلا وتفكيكا وإحاطة بأجزائه وكلياته، وسبرا لدلالة ألفاظه وتراكيبه، وتوصلا إلى أغراضه ومقاصده، وتقنينا لأساليب ومسالك الاستنباط منه، هدف يسعى إليه المفسر ويسعى إليه الأصولي على حد سواء.



وقد عني الأصوليون بهذه القضايا وحرروها ودققوا فيها تدقيقا زائدا، ولخصوا كل المقدمات التي يتوقف عليها تحقيق أغراضهم تلك من العلوم الأخرى مع استقراء زائد يليق بمقصودهم حتى استوى علم الأصول ونضجت فيه تلك البحوث، وبلغت حدا متقدما جدا من التحرير والانضباط. حتى إنهم لخصوا بحوثاً من علوم اللغة، ومن علم النحو، ومن علوم البلاغة وغيرها وجعلوها أبوابا في علم الأصول.

فلا يليق لأحد أن يُقْدِم على تفسير كتاب الله تعالى من دون نظر سابق، وتمرس فائق بعلم الأصول. قال العلامة الطاهر بن عاشور في "التحرير والتنوير": "وأما أصول الفقه فلم يكونوا يعدونه من مادة التفسير، ولكنهم يذكرون أحكام الأوامر والنواهي والعموم، وهي من أصول الفقه، فتحصل أن بعضه يكون مادة للتفسير، وذلك من جهتين؛ إحداهما: أن علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب، وفهم موارد اللغة، أهمل التنبيهَ عليها علماءُ العربية، مثل مسائل الفحوى ومفهوم المخالفة. وقد عد الغزالي علم الأصول من جملة العلوم التي تتعلق بالقرآن وبأحكامه، فلا جرم أن يكون مادة للتفسير. أما الجهة الثانية؛ فهو أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها، فهو آلة للمفسر في استنباط المعاني الشرعية من آياتها".

وربما كان الأمر أكبر من ذلك، حيث يستفيد الناظر في فن الأصول نسقا كليا للتفكير يرث من خلاله أصولا كبرى للنظر، ويلتفت ذهنه إلى قضية القطعية والظنية وأثرها في الفهم، وإلى أبواب التعارض والترجيح وكيف يسلك فيها، وإلى الاستدلال وكيفية استخراج جهة الدلالة من النصوص إلى غير ذلك من أساليب الفهم. ولا تخفى أهمية ذلك لمن يتصدى للإبانة عن معاني كلام الحق جل شأنه.

اتساع مدلولات التركيب

وأساس آخر لا يقل أهمية عما سبقه وهو "اتساع مدلولات التراكيب بحسب اتساع الأسقف المعرفية، والتراكيب الحضارية".

فقد قال علماء الأصول: "الاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة المخاطب، والوضع قبلهما". والمقصود أن حمل الكلام على معانيه وتأويله على أوضاعه اللغوية من صفات المتلقي أو المستمع. والمقصود أيضاً أن المستمع هو الذي يتلقى الكلام فيقوم بمهمة تحليله واستخراج مضامينه والتغلغل فيه للوصول إلى المقاصد التي حملها المتكلم عليه. وكل ذلك محكوم بالوضع اللغوي الضابط لعملية استعمال الكلام. والذي يؤمّن إيجاد مشترك بين المتكلم والسامع، يتم من خلاله تبادل المعاني، ذلك التبادل الذي على أساسه نهض المجتمع البشري وتراكمت المعارف وسرت بين البشر فنمت الحضارة.

وهذه العملية التي يحكمها الوضع متوقفة عند تنزيل كل لفظ على معناه أو معانيه التي ركب بإزائها منذ أن تم الوضع اللغوي واستقر، بحيث لم يعد من الممكن التلاعب بتلك الدلالة أو تغييرها، إلا بمقدار مأمون ومنضبط من تحريك دلالة اللفظ بحيث ينتقل الذهن من المعنى الأصلي الذي وضع له اللفظ إلى لازم له، أو جزء من مدلوله أو ما أشبه.

وهذا يعني أن لكل مستمع حظا من فهم التركيب، بحيث كلما اتسعت معرفته وازدادت خلفياته وامتد تصوره إلى معان أوسع، رأى أن التركيب يحتملها ويومئ إليها. ولا يكاد أن يقع هذا في كل البشر إلا نادرا لاستواء البشر في المعارف أو تقاربهم فيها. وهم في ذلك محكومون بمعطيات زمانهم، بحيث لا يخطر لأحدهم ما سوف يكشفه الزمن من الأمور بعد زمنه، ليضمن كلامه إشارة إليه. فإن وُجد بشري نابه، أو عبقريٌ فذ وعَرَف بطريق ما شيئا من الأمور المستقبلة وأشار في كلامه إليه، ثم جاءت الأحداث موافقة له اعتبر الناس هذا ظاهرة خارقة تستحق الدراسة كما وقع مثلا حول "تنبؤات نوستراداموس"، وشأنها معروف.

فكيف بالعلم الإلهي الشامل المحيط الذي لا تخفى عليه خافية، وهو سبحانه الذي قدر لكل زمن ما يقع فيه من أحداث ويستجد

فيه من علوم ومعارف، فإنه سبحانه ضمّن كلامه إشارة إلى ذلك كله، بحيث كلما استجد شيء لاحت دلالة النص إليه. فالقرآن الكريم نصٌ جاءت ألفاظه وتراكيبه من عند الله بحيث لا تتناقض مدلولاته مع أي سقف معرفي يأتي به زمن، وليس ذلك في طوق بشر، بل كلما تدخلت الأهواء البشرية في الكتب السماوية، فإنها بتصوراتها القاصرة التي لا تحيط بمستجدات الأمور في الأزمان المقبلة تقيد طلاقة النص وإطلاقه، وتجعل أحدث الأزمان تناقضه وتصطدم به. ولذا صان الله القرآن وحَفِظه، ولذا اصطدمت نصوص الكتب السماوية المحرفة بالواقع حتى أحدثت مشكلة العلم والدين في أوروبا. وقد تناول هذا المعنى "موريس بوكاي" في كتابه "القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم الحديث".

والمقصود أن البشر كلما ارتفعت معارفهم واستحدثت عندهم علوم ومعطيات، وجدوا أن النص القرآني متسق مع تلك المعطيات، بينما يسقط كلام أي بشري عن مواكبة الزمن، لقصور تصور قائله وعدم إحاطته عند صياغة كلامه، وكلما كان قارئ القرآن أوسع إحاطة بالعلوم والأفكار والمناهج المختلفة، اتسعت دلالة القرآن في نظره على نحو معجز. ولذا يظل القرآن متجددا عبر العصور لا تنتهي عجائبه ولا ينضب معينه، بل يزداد ثراء كلما ارتقى البشر في سلم الحضارة والمعرفة. قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين، قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم، فينبلج للناس شيئا فشيئا انبلاج أضواء الفجر، على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم".

مسالك القرآن في التأثير على النفس

وأساس مهم من أسس التفسير وهو "مسالك القرآن في التأثير على النفس وأثر ذلك في فهم النص القرآني وتحليله، ووجوب تحصيل آليات ذلك". وهو أصل إن غاب عن الناس كلهم فينبغي ألا يغيب عن المفسر. وهو الذي ينقب عن مقاصد القرآن ومراميه، ومدلولات الإيحاءات والمؤثرات التي يستجلبها القرآن ويوظفها في إثارة النفوس وتحريكها، وحملها على النهوض والنشاط والمسارعة إلى ما يريد أو الحساسية والتوجس والفرق مما لا يريد.

وليعلم أن هذا الأصل متوقف على محورين؛ الأول: علوم البلاغة، وهي المعنية بأسرار التركيب اللغوي، والمعاني الكامنة وراء كل تحوير وتغيير في التراكيب، وما يترتب على كل احتمال منها من المعاني المستفادة. الثاني: هو علم النفس، لأنه هو المعني بالبحث في طبيعة النفس البشرية وكيفية صدور الأفعال منها وكيفية استجابتها للمؤثرات المختلفة.

والقرآن الكريم جاء بتصور كامل للنفس البشرية وطبيعتها وأطوارها، وقد سار في تطبيقاته العملية وفي سرده لمقاصده وفي نسجه لكلماته وآياته وفق منهج رباني راق في التعامل مع النفس والتأثير فيها، بحيث إن المفسر إن ألمّ بأطراف من ذلك واتسعت معرفته بهذه المعاني صار يرى وراء كل كلمة وكل تعبير وكل تركيب قرآني تأثيرا نفسيا مقصودا.

قال الإمام الخطابي في "بيان إعجاز القرآن": "في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا شاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتفزع له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة".

قصص الأنبياء مناقشة لأصول المناهج الفكرية

وأساس آخر مهم من أسس تفسير القرآن الكريم وهو أن "قصص الأنبياء مناقشة لأصول المناهج الفكرية التي يدور حولها الفكر الإنساني عبر الزمان". فقد جاءت قصص الأنبياء لمقاصد ربانية متعددة، منها تثبيت فؤاد النبي ﷺ ومن ثم تثبيت أفئدة ورثته وحملة مواريث النبوة وأنوار الهداية من بعده، إلى الخلق من العلماء الهداة والدعاة إلى الله على بصيرة بحق، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(هود: ١٢٠).

ومنها أنها موضع نظر وتأمل لأصحاب الفكر، وأهل العقول المستنيرة بحق يقول ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(يوسف: ١١١). فقوله "عبرة" معناه أن قصص الأنبياء محل نظر واسع، بحيث تستخرج منها فوائد كبرى، وقد توسع العلامة الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في المقدمة السابعة من مقدمات "التحرير والتنوير"، في ذكر فوائد قصص الأنبياء، فذكر عشر فوائد مع إفادات جزلة حول قصص الأنبياء وكيفية توظيف القرآن لها.

وقد تأملت قصص الأنبياء في القرآن فلاح لي فيها معنى كلي جليل يجعل فائدتها أوسع وأكبر من أن تكون سردا لأحداث من

تاريخ الأنبياء الكرام، رغم ما في ذلك من الأهمية والجلالة.

وبيان ذلك: أن كل واحدة من قصص الأنبياء تناقش منهجا من مناهج الانحراف، وتتعرض بالتحليل والرد والتقويم لفلسفة من الفلسفات، وتبحث قضية كبرى من قضايا الفكر الإنساني، بحيث تشتمل قصصُ الأنبياء على مناقشة لأصول المناهج الفكرية المنحرفة والمتكررة عبر التاريخ الإنساني بأكمله، حيث إن البشرية في تاريخها الطويل عرفت فكرة مشابهة لفكرة العلمانية مثلا، ففكرة العلمانية وفصل الدين عن مجالات الحياة ليست حديثة أو وليدة عصور النهضة الأوروبية، بل هي منهج فكري بشري قديم برز عند قوم شعيب عليه السلام. فقد حكى القرآن عنهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(هود:٨٧).

فهم يتعجبون من وجود علاقة بين الصلاة وبين إدارة الأموال، وأوجهِ التعامل معها. فقد جاء قوم شعيب فوق الكفر ببلية أخرى، وهي أنهم لا يرون رابطا بين التقوى والصلاة والصلاح وبين الشؤون المالية، وكأنهم يقولون: لا علاقة بين الدين وبين الاقتصاد.

وعليه فإن قصة شعيب أرقى منهج نبوي قرآني ناقش قضية العلمانية، وأبرزُ المحاور المهمة التي تفكك تلك الفكرة، وتبين فسادها وضررها، وتأتي بالبديل الرباني والتوجيه الإلهي في هذا الصدد. وبهذا يتسع لنا مجال آخر في فهم أسباب اختيار الحق سبحانه لقصص معينة من قصص الأنبياء، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾(غافر:٧٨). وكأن القصص المنتقاة التي أوردها القرآن تناقش رؤوس القضايا الإنسانية والنظريات الفلسفية.

ويترتب على هذا أن يُقبل المفسر على قضية شعيب عليه السلام وأن يجمع كل مواضع ورودها في القرن ثم يتأمل المعالجة الإلهية لقضية العلمانية. وكيف علّم الله تعالى شعيباً عليه السلام المداخل الدقيقة لمناقشة تلك القضية، وما هي المرتكزات التي رشحها القرآن وأبرزها في مناقشة تلك القضية، وذلك بعد أن يقرأ العلمانية وتطوراتها ودرجاتها قراءة دقيقة على غرار ما كتبه الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه "العلمانية الجزئية، والعلمانية الشاملة"، بحيث يعرف ما ينبغي أن يبحث له من رد وجواب في القرآن.

وبهذا تضيف قصصُ الأنبياء فوائدَ زائدة على العظة والعبرة والتثبيت والتأسي، ويتسع مجالُ النظر فيها وتنفتح لنا دراسات قرآنية جديدة في بحث أساليب القرآن في مناقشة التيارات والمناهج والفلسفات الحديثة، ويتبين أن كل قصة من قصص الأنبياء تمثل مناقشة لفلسفة أو منهج فكري مما يتكرر عبر التاريخ.

محاور السور وأثرها في فهم القرآن

وأساس من أسس التفسير الآخر وهو: "محاور سور القرآن، وأثرها في فهم النصوص القرآنية". ومعناه أن لكل سورة من سور القرآن الكريم محورا محددا تنبني عليه السورة، وتدور حوله وتؤكده بصور ونماذج تفصيلية متعددة، وتجند لأجل خدمته وإبرازه أمثالا وقصصا ومقاطع قرآنية، مطولة أحيانا ومقتضبة حازمة خاطفة في أحيان أخرى بحيث تشتمل تلك المقاطع على أوامر تشريعية ونظم أخلاقية ومناقشة لمناهج فكرية مختلفة وما أشبه مما يشكل مقاصد جزئية، تتعاضد وتتآلف وتتشابك وتتداخل من أجل ترسيخ وتوكيد معنى ذلك المحور الرئيسي الذي تدور السورة حوله.

فمحور سورة البقرة مثلاً في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:١٣١). إذ تدور سورة البقرة حول قضية الإسلام لله، وكيف أنها المدخل الأعظم لتحقيق قضية العبودية والإعانة التي جاءت بها سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥)، وأن الأمر فيها ينهض على أساس راسخ من التسليم المطلق لله بالعظمة والربوبية واستحقاق العبادة وأنه وحده الحاكم، وأن التشريع والأمر والنهي له وحده.. حتى إذا ما ثبتت قضية التسليم واستقرت في العقل، وانعقد عليها الجنان أمكن نقل هذا المكلف إلى قضية الاصطفاء وهي محور سورة آل عمران، إذ تدور السورة كلها حول آيتين محوريتين وهما قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(آل عمران:٣٣-٣٤).

وهكذا وكأن سور القرآن تعالج قضية كبرى، ابتداء بقضية العبودية في سورة الفاتحة وقضية الإسلام في سورة البقرة وقضية الاصطفاء في سورة آل عمران وانتهاء بقضية الالتجاء إلى الله والاحتماء به في سورة الناس.

أساس أخير ومهم من أسس التفسير نختم به حديثنا عن أسس التفسير، وهذا لا يعني أن هذه الأسس محصورة وإنما بالتأمل والاستقراء يمكن أن نستخرج أسسا أخرى ويمكن أن نعد هذه الأسس نماذج من الأسس المستخرجة من القرآن الكريم لتفسيره.

الاشتقاق الأكبر وأثره في فهم النص

فمن أسس التفسير "الاشتقاق الأكبر وأثره في فهم النص". فالاشتقاق علم من أعظم علوم اللغة على الإطلاق، وأشدها تأثيرا في فهم دلالة التراكيب. وهو علم دال على ثراء العربية

وســعة بحور اللغة. والأصل فيه إدراك المعاني، ثم ملاحظة سريان المعــنى في كل الصور اللفظية المتناســلة الدالة عليه، والتي انتزع بعضها من بعض، أو عكس ذلك؛ بأن تجمع الألفاظ المتشــابهة علــى نحو معين بغية الوصول إلى المعنى الذي تدور حوله، إضافة إلى أنه تستخرج به من اللفظ الواحد صور بالغة الكثرة في تعبيرها عن الأحوال والهيئات والاحتمالات والفوارق الدقيقة التي تطرأ على المعنى الواحد باعتبار تنوع المشخصات واختلاف الأحوال، بحيث يستخرج لكل حال صورة من صور اللفظ.

ثم هو علم واسع دقيق فيه مؤلفات كثيرة، وإنما أردت هنا نوعا محددا من أنواع الاشتقاق، وهو نوع تنوعت أسماؤه عند العلماء، فســماه الفخر الرازي في "مفاتيح الغيب" "الاشــتقاق الأكبر". وتبعه محمد راغب باشــا في كتاب "السفينة" له، وتبعهما صديق حسن خان في "العَلَم الخفاق من علم الاشتقاق" وغيرهم...

وهؤلاء جميعا يتكلمون على نوع واحد اختلفت أسماؤه. قال الأســتاذ عبد الله أمين في كتاب "الاشتقاق": "الاشتقاق الكبار وهو انتزاع كلمة من كلمة أخرى بتغيير في ترتيب بعض أحرفها، بتقديم بعضها على بعض مع تشــابه بينهما في المعنى والاتفاق في الأحرف". ويسمى هذا الاشتقاق "قلبا لغويا" تمييزا له من القلب الصرفي الإعلالي وهو إبدال بعض أحرف العلة من بعض.

وقــد أسميت هذا القلب اللغوي "القلب الاشــتقاقي"، لأنه من مباحث علم الاشــتقاق وأكثر ما يكون القلب الاشــتقاقي في الكلمــات الثلاثية، وبصيغتين في المادة الواحدة مثل: "جذبه، وجبذه" إذا شده إليه..

قال الإمام الفخر الرازي في "التفسير الكبير": "المسألة الأولى: اعلــم أن أقصر الطرق في تعريف مدلــولات الألفاظ هو طريقة الاشــتقاق، ثم إن الاشــتقاق صيغة الماضية والمستقبل والمصدر، ومثل اشتقاق اســم الفاعل واســم المفعول وغيرهما منه. وأما الاشــتقاق الأكبر فهو أن الكلمة إذا كانت مركبة من الحروف كانت قابلة للانقلابات لا محالة، فنقول أول مراتب هذا التركيب أن تكون الكلمة مركبة من حرفين ومثل هذه الكلمة لا تقبل إلا نوعين من التقليب كقولنا "من" وقلبه "نم".

وبعــد هذه المرتبة أن تكون الكلمة مركبة من ثلاثة أحرف، كقولنا "حمد"، وهذه الكلمة تقبل ســتة أنــواع من التقليبات، وذلك لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة ابتداء لتلــك الكلمة، وعلى كل واحد من التقديرات الثلاثة فإنه يمكن وقوع الحرفين الباقيين على وجهين، لكن ضرب الثلاثة في اثنين بستة، فهذه التقليبات الواقعة في الكلمات الثلاثية يمكن وقوعها على ستة أوجه.

ثم بعــد هذه المرتبة أن تكون الكلمة رباعية كقولنا "عقرب، وثعلب" وهي تقبل أربعة وعشــرين وجها من التقليبات. وذلك لأنــه يمكن جعــل كل واحد من تلك الحــروف الأربعة ابتداء لتلــك الكلمة، وعلى كل واحد من تلك التقديرات الأربعة فإنه يمكن وقوع الحروف الثلاثة الباقية على ستة أنواع من التقليبات وضرب أربعة في ستة أنواع من التقليبات، وضرب أربعة في ستة يفيد أربعة وعشرين وجها..".

وعليه يمكن للمفسر أن يتوسع في تحليل لفظ "الملك" والملائكة جنس شــريف من الخلق. أورد القرآن بعض أوصافهم وسكت عن بعض اكتفاء بدلالة الصورة الاشتقاقية للفظ الملك. إذ الأصل في اللفظ الدلالة على القوة والبأس، فكان الأصل في الملك القوة، تلك القوة التي تشــيع وتســري في كل سماته وأوصافه؛ فهم لا يأكلون ولا يشربون وهذه قوة، وهم لا ينامون وهذه قوة، وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذه قوة. ومنهم خزنة جهنم وهم ملائكة غلاظ شداد وهذه قوة، ثم هم مع بأسهم وسطوتهم وقوتهم يجمعون إلى ذلك غاية الخضوع للحق، فهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وهم مع حملهم للعرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا.

كل ذلــك يلفت نظر المفســر إلى توظيف قضية الملائكة في ترسيخ معنى عظمة الحق سبحانه من حيث خضوع هذه الأكوان العظمة لجلاله، يلفت نظر المفســر إلى جــلال وعظمية القضية التي عرضها الحق ســبحانه في قوله تعــالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَــنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۝ بَلَــى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِــنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَــةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(آل عمران: ١٢٤-١٢٦).

وإذا ألفنــا النظر والتأمل في المفــردات القرآنية بهذه الطريقة انفتحــت لنا آفاق رحبة في الوقوف على التصورات الكاملة التي أراد القرآن لنــا أن نعرفها ونحيط بها. وذلك لأن الألفاظ حينئذ سوف تنثر لنا مكنوناتها ويبوح كل لفظ بما يحمله معناه من أبعاد، ولا يخفى أن هذا في غاية الأهمية في فهم القرآن. ■

(*) مفتي الديار المصرية.

السوق

أ.د. حسن الأمراني*

نزلتُ إلى السوق كيما أمير ... فميرة أحبابنا فرض عين

فكانت كمعترك لا يلين ... فهذا بصدق، وهذا بمين

وذاك يقارب بين الخطا ... وذلك كالسهم في الخافقين

وآخر قد أتعبتْه السنون ... فأصبح يخطر ما بين بين

وكلهمُ أدرك المبتغى ... وعاد ليرتاح من بَعد أين

ولكنني دونهم مفلسٌ ... فما عدت إلا بخفي حنين

ولما سألت وسال الفؤاد ... بما أثقل النفس والمعصمين

تناهى نداء إلى مسمعي ... وأصبح كالجمر في الأصغرين:

لقد نمتَ حتى انبلاج الصباح ... وكحّل سهدُهم المقلتين

تقلّبهم كان في الساجدين ... وقد شغلتك أمورٌ مَضين

أما زلت في السوق تبغي الفلاح ... أتحسبه ذهبا أو لجين؟

لقد ربح البيع يا بن التراب ... إذا بعت ربّك ما باليدين

وقطّعت ليلك كالعاشقِين ... وذرّفت في جوفه دمعتين

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

بنائية القرآن المجيد

دعامة من دعامات الختم



أ.د. أحمد عبادي*

يعتبر مفهوم المنهج (Méthode) من أنفس ما اهتدى إليه العقل البشري عبر قرون متتالية من الكدح والمكابدة في المجال المعرفي، وهو عبارة عن آليات متضافرة للكشف عن الحقائق المعرفية في مجالاتها المتعددة والمتنوعة، إذ ينصبغ المنهج دوما بصبغة المجال الذي يُعمَل فيه.

وقد أدى إعمال المنهج إلى بروز مفهوم أدق هو مفهوم المنهجية (Méthodologie)، وهي عبارة عن إطار مرجعي جامع لمجموعة آليات استنطاقية بحثية متواشجة ينتظمها ناظم موحد.

ولم يهتد العقل البشري إلى المنهجية في المجال الكوني إلا بعد أن اكتشف أن الظواهر الكونية موحدة عضويا، انطلاقا من إدراك بنائية الكون ووحدته العضوية. وقد تمت تعدية هذا المفهوم إلى المجالات الاجتماعية والإنسانية من لدن مجموعة من المدارس.

وفي مقابل بنائية الكون، التي أطلق اكتشافُها إمكانَ البحث المنهاجي وفجر كلَّ هذه العطاءات المعرفية والمادية التي نشهدها اليوم، فقد منّ الله سبحانه بأن أقر بين ظهرانينا القرآن ترتيلاً، والترتيل لغة من "الرتل وهو حسن تناسق الشيء. وثغر رتَل ورتِل: حسن التنضيد مستوي النبات، ورتّل الكلامَ: أحسن تأليفه. والرتيلاء: جنس من الهوام" وهي العنكبوت التي تنضد بيتها بشكل شبكي بديع تتفاضى كل مكوناته. غير أننا نجد كثيرا من المفسرين -رغم اتفاق أقوال أئمة اللغة على أن الترتيل مأخوذ من النضد ومن الاتساق ومن التنسيق ومن الانتظام على استقامة- قد قصروه على الجانب الصوتي منه؛ فقالوا هو: "إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة". ولما كان الأمر في القرآن ينصرف بالأصل إلى تدبر المعاني وتفهمها، إذ هو كتاب هداية، فإن قَصْر المعنى على الجانب الصوتي من القرآن رغم الحشد الحاشد من الآثار، كآثار ابن عباس ومجاهد وقتادة، ومن كلام أئمة اللغة، كابن الأعرابي والجوهري وابن منظور وابن عباد وغيرهم مما ينص جميعه على حسن تفهم المعاني وتفهيمها، أقول: رغم كل تلك الآثار والأقوال فقد تم إهمال البعد البنائي/النّضْدي الاتساقي الذي تتضمنه هذه الكلمة: الأمر الذي يعد تحكما بغير برهان، خصوصا إذا وجدنا في تعريفات بعض القراء كأبي البقاء الكفوي للترتيل، النصَّ الصريح على أنه للتدبر والاستنباط أيضا

وذلك في قوله: "وأما الترتيل، فإنه للتدبر والتفكر والاستنباط".

إن الوحدة العضوية في القرآن المجيد، والتي تشكل أحد أهم وجــوه الإعجاز فيه، تفتح المجال أمام القراءة المنهاجية للآيات/ البصائر صُعُداً نحو مآلات معرفية لا حصر لها.

ولطالمـــا دندن علماؤنـــا كالإمام ابن حزم الأندلســـي (ت ٤٥٦هـــ)، والإمـــام عبد القاهر الجرجـــاني (ت ٤٧١هـــ)، والإمام أبي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـــ)، والإمام أبي إســـحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـــ) وغيرهم حول بنائية القرآن تحت عناوين مختلفة؛ فتارة سموها النظم، وتارة سموها الترتيب، وأخرى سموها الاتساق أو المعمارية أو البنائية مباشرة.

ومن أعظم وأجلى ما كتب حول بنائية القرآن تلك الورقات الوضيئة التي كتبها الدكتور محمـــد عبد الله دراز في كتابه القيم "النبأ العظيم"، وسوف نجتزئ منها بثلاث فقرات نرى فيها تعبيراً واضحا عن إدراكه العميق لهذه البنائية، محيلين على باقيها ليراجع في موضعه.

يقـــول رحمه الله: "فلـــو أنك نظرت إلى هـــذه النجوم عند تنـــزيلها... فرأيتها وقد أُعِدّ لكل نجم منها ســـاعة نزوله سياجٌ خاص يأوي إليه ســـابقا أو لاحقا، وحُدد له مكان معين داخل الســـياج متقدما أو متأخرا، إذن لرأيـــت من خلال هذا التوزيع الفوري أن هناك خطة تفصيلية شـــاملة قـــد رُسمت فيها مواقعُ النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أســـبابها، وأن هذه الخطة التي رسمت علـــى أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بآكد العزم والتصميم.. فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جعل في مكان ما من الســـورة آخراً ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفا ومحولا...".

ويقول رحمه الله: "أقبل بنفسك على تدبر هذا النظم لتعرف بأي يـــد وضع بنيانه، وعلى أي عين صنع نظامه... ولســـوف تحسب أن الســـبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعـــة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلهـــا أو جلها قد نزلت نجومـــا، أو لتقولن إنها إن كانت بعـــد تنـــزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنـــزيلهـــا مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائما على قواعـــده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدّرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة".

ثم قـــال رحمه الله: "ولماذا نقول إن هذه المعاني تتنســـق كما تتنســـق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جســـم الإنســـان، فبين كل قطعـــة وجارتها رباط موضوعي من أنفســـهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بها عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشـــرايين والعروق والأعصاب... كما يأخذ الجسم قواما واحدا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية".

أهمية بنائية القرآن المجيد في المجال المعرفي

إن القرآن المجيد في اتســـاق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شـــتات الإنسان المعرفيّ، وتوحد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يُمَكّنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين، إلى صيرورته سلماً لله رب العالمين، فيطفق في السير ســـوياً على صراط مستقيم. وقد تنبهت د. منى أبو الفضل -رحمها الله- بلوذعية إلى هذه الحقيقة فقالت في معرض حديثها عن حيوية الخطاب القرآني:

"إن هذه الحيوية إنما ترجع في جانب منها إلى الإعجاز البياني في الأسلوب القرآني في الخطاب؛ والذي يجمع بين خطاب النفس الإنسانية في أبعادها الفطرية والوجدانية وخطاب العقل في أبعاده المنطقية والبرهانية. ومنـــاطُ الإعجاز هنا هو في تجاوزه للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل، وبنسب عكســـية نحو تضافر وائتلاف بينهما... والدلالة العملية لذلك في مجال بحثنا، هي أن الأصول المنهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإســـلامي لابـــد أن تعتبر بهذا المعنى في أســـلوب البيان القرآني. فإذا كان هناك موضع للتمييز بين تنوع جوانب ومصادر السلوك الإنساني والسلوكيات في المجتمع، فإن علينا أن نتعامل مع الإنســـان في وحدته المتضمنة لأبعـــاده المتنوعة، وأن تنطلق مناهجنا في التعامل مع الظواهر الاجتماعية من تلك القاعدة التي توفّر لها أوسعَ قدر من التكامل الممكن وسعة الأفق.

والوجه الآخر لهذه الملاحظـــة أن علينا أن نتعامل بكثير من التحفـــظ مع المناهـــج المتداولة في مجـــال التخصص، ليس فقط للاعتبار الجوهري الذي يحكم منحاها جميعاً، والذي ينشـــأ عن المنطلقات الفلسفية المعرفية التي تقوم عليها، مما يتنافى مع الأصول المعرفية الإســـلامية، ولكن لأنها لا محالة واقعة بين مثالب الإفراط

والتفريط، على النحو الذي من شأنه أن ينعكس في كل من طبيعةِ ونتيجة الدراسات التي ترتكز إليها.

وأول ما نستفيده من التعامل مع أسلوبِ البيان القرآني، هو ضرورة اتساق الأصول المعرفية ومحتوى الرسالة مع الأصول المنهجية أو طرقِ الاقتراب والتناول لها. بل إننا نرى أنه من شأن تمايز الخطاب القرآني على هذا النحو الذي يؤلف فيه بين المتنافرات، أنْ أوجد نسقا إسلاميا خاصا في المعرفة، قوامه الوحدة والاتساق، وإمكاناتُ التأليف بين المتباينات، وهذا على خلاف النسق السائد في المجال المعرفي المعاصر، والذي هو وليد وميراث التطور التاريخي الخاص بالحضارة الأوروبية في أبعادها الفكرية والروحية والواقعية".

ولقد سُقت هذا النص بطوله و لم أشأ أن أثلمه بتصرف لما له من بالغ الأهمية في هذا الباب.

إن إدراك هذه الحقائق يضع على عاتق علماء الأمة مهمة تجلية مستأنفةٍ لمعالم النسق المعرفي الإسلامي. ومن الواضح قيام هذا النسق على المنهاجية المؤسَّسة بدورها على إدراك البنائيتين في الكتابين: المنظور (الكون) والمسطور (القرآن المجيد). وفيما يلي بيان لعلاقة العلوم المتصلة بالكتابين بوحدهما البنائية.

علاقة التسخير بالوحدة البنائية للكون

مفهوم التسخير: قال الزبيدي: "والتسخير: التذليل، وسفن سواخر مواخر من ذلك. وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد، فقد سخّر لك. وسخره تسخيراً: ذلّله وكلفه عملا بلا أجرة... قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾(إبراهيم:٣٣). وقوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤). قال الأزهري: جاريات بمجاريهن".

وتسخير الخليقة للإنسان عام، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣).

إن الذي يحول دون الإنسان وتسخير الكون هو التعضية والتفرقة بين مظاهره وعدمُ الاستبصار ببنائيته. فمن خلال الاتساق يتمكن الإنسان من إدراك استمرارية النظام الكوني القائم على قوانين وسنن تؤدي وظيفتَها فيه، وتسري سريانا لا يتخلف ولا يقصر عن مظهر من مظاهره، ما علم منها الإنسان وما لم يعلم، وبالطرائق التي أحاطت بها معرفته أو تلك التي لم تبلغها بعد.

إن الكون نظام هادف نابض بالحياة مفعم بالمعنى، حيث إن كل أجزائه تكوّن "بناء عضويا تتفاعل أجزاؤه وأعضاؤه بطرق لا يزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم، لكن في أجزاء محدودة جدا من الطبيعة. أما المسلمون فهم يعلمون أن الخليقة كيان عضوي، وأن كل جزء فيها يخدم غاية ما، حتى ولو كانوا لا يعرفونها. وهذا العلم ثمرة لإيمانهم".

ورغم أن وحدة الكون البنائية أضحت اليوم مُدرَكا لا يحتاج إلى مزيد برهنة، فإنه من النافع استحضار الآيات من القرآن التي تفيد بنائية الكون وغائيته وملابسته الحكمة لكل مظاهره ودقائقه آيات كثيرة يتعذر حصرها في مثل هذا المقام، منها قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(النازعات:٢٧-٣٣)، قال الزبيدي: "والسَّمْك: السقف، أو هو من أعلى البيت إلى أسفله".

وتلفت الآيات العديدة التي فيها ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ النظر إلى أن الكون بناء تسري في جنباته الحكمة والقصد والغائية.

قال برهان الدين البقاعي في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾(إبراهيم:١٩): "بالأمر الثابت من وضع كل شيء منها في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة".

إن هذه الوحدة البنائية في الكون هي التي مكّنت العقل البشري -بعد اكتشافها- من تأسيس كل العلوم التي يمكن أن نصطلح على تسميتها "علوم التسخير"، ثم تطويرها إلى حد بلورة المنهجية التوحيدية بين التخصصات، والتي أعطت الفكر العلمي الجديد مددا قويا، وفتحت أمامه إمكانات في غاية الكثرة والتنوع والنفع.

علاقة التيسير بالوحدة البنائية للقرآن المجيد

أ-مفهوم التيسير: اليسر بالفتح، ويحرك: اللين والانقياد... وييسره: لاينه. واليسر محركة: السَّهل اللين الانقياد... واليسر بالضم: السهولة والغنى. واليسر ضد العسر، واستيسر الشيء: تسهّل، ويسره: سهّله... ويسّرت الغنم: كثر نسلها ولبنها.

وقد وردت لفظة التيسير مقترنة بكتاب الله تعالى في ستة مواقع من القرآن المجيد، منها أربعة في سورة القمر بلفظ واحد هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧، ٢٢،

٣٢، ٤٠) ومنها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(مريم:٩٧)، ثم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(الدخان:٥٨). ولفظ التيسير في هذه الآيات جميعها يفيد تسهيل القرآن للذكر من لدن الله الذي يفضي إلى لين وانقياد ذاتي لمن أراد الذكرى.

ب-العلاقة بين علوم التيسير والوحدة البنائية للقرآن الكريم: في مقابل التسخير للكون إذن، نجد تيسير القرآن، وفي مقابل التفكر في الكون المنتج للمعرفة فيه ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾(آل عمران:١٩١)، نجد التدبر في القرآن المنتج للاهتداء به: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(ص:٢٩). وكما أن علوم التسخير تنتج عن الوعي ببنائية الكون وخضوعه لسنن قابلة للتعقل والإدراك بمقتضى المواءمة التي بين الكون والإنسان، وأنها علوم تتطور بفعل اتباع المنهجية الآياتية، وتفعيل القدرة على تسمية الأسماء -كما سيأتي بيانه حين الكلام عن المنهجية الآياتية- فإن علوم التيسير تنتج عن الوعي ببنائية القرآن المجيد وتضمنه لسنن قابلة للتعقل والإدراك من لدن الإنسان، بمقتضى المواءمة التي جعلها الله بين الإنسان والقرآن. غير أن علوم التسخير -وللنفع السريع الظاهر الذي ينتج عنها- قد شهدت وتشهد تطورات في غاية الأهمية والسرعة، في حين أن علوم التيسير قد أصابتها صنوف من الانتكاس، بسبب عوامل متعددة، أهمها التقليد وانعدام الرؤية وانقطاع الطريق، بفعل الحضور الجبار الكابت للاجتهادات وللجهود الموسوعية التي بذلها السابقون، إلى درجة رواج مقولات محبطة في أمتنا، من مثل: "ليس في الإمكان أبدع مما كان" وغيرها، مما يحتاج إلى استدراك ناجز من لدن مؤسساتنا العلمية والبحثية.

المنهجية الآياتية ثمرةٌ من ثمرات إدراك البنائيتين (بنائية الكون وبنائية القرآن) وبوابةٌ للمعرفة الناجعة الراشدة.

ونقصد بالمنهجية الآياتية المعرفية القائمة على قراءة الآيات والبصائر باسم الذي علم الأسماء، الله الذي خلق.

وقد كان هذا المضمون، هو أول وحي تلقاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

والآيات والبصائر مبثوثة في الكون، كما أنها مكونات القرآن. إن آيات سورة العلق تأمر سيدنا محمدا ﷺ، ومن خلاله الإنسان في كل زمان وفي كل مكان، أن يقوم بضربين من القراءة: قراءة آيات وبصائر الخلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقراءة في الوحي الذي حفظه الله في السطور وفي الصدور: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. فهي قراءة في آيات وبصائر الكون بتوجيه وترشيد من آيات وبصائر القرآن.

إن الآيات والبصائر في القرآن المجيد تمكّن من إضافة الوجهة إلى قدرات الإنسان التسخيرية، والناجمة أساسا عن تعليم الأسماء الممكّنة من قراءة الآيات والبصائر الكونية كما يتضمن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(البقرة:٣١-٣٣)، بيد أن الوجهة التي تحررها لنا آيات الكتاب الحكيم، وهي من الضرورة بحيث بدونها لا ينال رشد ولا يُهتدى إلى قبلة.

نعم، إن الآيات والبصائر الكونية، حتى حين تقرأ بدون هداية من آيات القرآن المجيد تُكسب الإنسان الفعالية التسخيرية، ولكنها فعالية قد تكون مردية في غياب الاستبصار بالوجهة؛ يقول تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾(العنكبوت:٣٨).

قال الفراء: "كانوا عقلاء ذوي بصائر"، فهم كانوا ذوي بصائر تسخيرية، غير أن عدم استجابتهم لرسلهم -والذين كسائر الرسل جاؤوا لإضافة الوجهة إلى الفاعلية- أدى بهم إلى الهلاك.

إن قراءة الآيات والبصائر الكونية استهداءً بالآيات والبصائر القرآنية في ضوء الإدراك المنهاجي للبنائيتين، تمكّن الإنسان من وجهته فقبلته، وبالتبع من السجود والاقتراب.

وهنا الفيصل بين منظومتين: منظومة الجمع بين الآيات الكونية والقرآنية، ومنظومة التعضية والتفريق بينهما. وهي منظومة لا ترى في كسب الإنسان إلا أداة إنتاج للمال والطعام/للقيمة المضافة، مما يشكّل حالة عدم إبصار مردية، إذ الكون في منظومة

أرحم الراحمين عطاء غير مجذوذ، يسخر بالقراءة لآياته وبصائره في نور آياتِ وبصائرِ القرآن المجيد، للتمكن من الوجهة والقبلة فالسجودِ، وليس فقط مجالا لإنتاج القيمة المضافة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨).

فالكــــون إذن في منظومة أرحم الراحمين ليس معملا مقتصرًا علـــى إنتاج "القيمة المضافة" كما تراه منظومة الذين لا يوقنون ، بل هو ابتداء معمل لعبـــادة الله وحده، ووظيفة كل من فيه هي هذه، سجودا وتسبيحا، وهي وظيفة لا تنفي الوظائف الأخرى بـــل تؤطرها وتكملها، وحين تُعَطَّل من قِبَل مَن حَمَل أمانة القيام بها إراديا، فإنه ترتّبت على ذلك عواقبه. قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة إلا على شـــرار الخلق" ، أي بعد أن تعطل الوظيفة الأصلية للوجود الإنساني في هذا الكون.

إن الإعراض عن الاهتداء بالآيات والبصائر القرآنية في عملية القـــراءة للآيات والبصائر الكونيـــة، يفضي إلى هلاك لا يصيب المعرضين خاصة، بل يعم معهم مَـــن يضلوهم بعلم وبغير علم. يقول تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْـــتَكْبِرُونَ ۞ لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(النحل:٢٢-٢٥).
إن العقل العلمي المعاصر يرفض استدماج مفهوم الوحي في بنيته المعرفية، وهو إذ يتســـامح مع بعض موضوعاته، فإنه يصمم على رفـــض منهجيته ووحدته البنائية، وإطاره الغائي، مؤكدا على أن اختصاص الكتب الدينية يجب أن يتوقف عند القناعات الإيمانية، وغيبيـــات ما وراء الطبيعة... فطالما أن هناك مقولات في الكتب الدينية تتعلق بالغيـــب، فإنه لا مجال لاتخاذها مصدرا من مصادر العلم، ومـــن ذلك تعريف المعرفة على أنهـــا "كل معلوم خضع للحس والتجربة".

إن القـــراءة الآياتية للكون تتجاوز بالإنســـان حالة الإفراز الذهني للمعرفة، المنفصل عن الكون والتجريب (الأنموذج اليوناني القديم) كما تتجاوز به حالة الغرق في التجريب، دون النظر إلى الغائية والقصد (الأنموذج المعرفي الغربي المعاصر)، إنها قراءة تمكّن الإنســـان من تجاوز المحدودية التي تفرضها عليه الحتمية الكزّة، نحو آفاق الوصل غير المتناهي بين آيات الكتابين، باعتبار إمكان النظر إليها من زوايا مختلفة، أو باعتبار التفصيل للمجملات الذي يُتيحه إعمالُ قدرة الأسماء، وهو لا شك تفصيل يفتح أمام العقل الإنساني إمكانات في غاية السعة.

إن المنهجية الآياتية تحول دون مُعتمِدها واســـتبداد سَـــوْرة الإحساس بامتلاك الحقيقة المطلقة/الاستغناء، مما يوقع في الطغيان، كما تحول دون مُعتمِدها ورفض مـــا خضع من المعارف لتأييد الآيات وشهادها.

إن المعرفة الناتجة عن المنهجية الآياتية أشـــبه ما تكون بصراط لامتنـــاه نظرا لتجدد القراءة في كل حين، بســـبب تعددِ وتنوع الآيـــات. أما إذا تم الانطلاق نحو الربط بين الآيات وبين ما ينبثق من آيات جديدة بعد تفصيلهـــا، فإن المعرفة تصبح نابضة بفعل تصديقهـــا لما بين يديها والهيمنة عليه نحـــو تصديق آخر جديد، بما يشـــبه حركة نواسية متنامية سيارة، وهنا تتحول القدرة على التسمية إلى مَعبر نحو إبصار الآيات والبصائر، إذ الأشياء والحقائق تُعرف بكيفية أدق وأمثلَ عبر آياها، وليس عبر مسمياها. فتسمية الحياة حياة ليســـت أقدر على التبصرة بماهيتها من الآيات الدالة عليها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِـــعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(فصلت:٣٩).

إن المسمى في نشأته الأولى كان عبارة عن رؤية للآيات/قراءة لها، فهو تسجيل وتعبير عن رؤيةِ راءٍ وقراءة قارئ. والمنهجية الآياتية تلغي الوسائط وتجعل الإنسان في كل مرة محقّقا للاتصال المباشر بالآيات، فحديـــث المتحدثين بالأسماء لا يعدو -في ظل المنهجية الآياتية- أن يكون تنبيها للنظر الشخصي في الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(العنكبوت:١٩-٢٠)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُـــونَ ۞ ...قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِـــنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(الأنعام:٩٨-١٠٤).

إن هذه المنهجيـــة الآياتية باعتبارها ثمـــرة من ثمرات إدراك الوحدة البنائية للكتابين المنظور والمســـطور هي التي تعطي لسير الإنســـان في الكون معناه، وتجعل كسبه التسخيري كسبا باحثا عن الرشد، إذ هي منهجية يشـــعر إنسانها بالافتقار إلى الوحي:



﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(الأنعام:٧٥-٧٧).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٥١). وفي مرحلة الختم للنبوة والحفظ للذكر واتضاح معالم المنهجية الآياتية يصدع القرآن بتحميل إنسانها كامل مسؤوليته، كما يصدع برفع نير الإكراه ونتق معالم القدرة عنه لما استقر في واقعه بطريقة جلية بينة محفوظة من البراهين والحجج، ومن الآيات والبصائر الدالة جميعها على سبيل الرشد: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٢٥٦-٢٥٧).

والرشد في القرآن المجيد من الجلاء والبيان بحيث ما لبثت الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾(الجن:١-٢).

خاتمة

وإجمالا، فإن من آكد مقتضيات التعامل مع كتاب الختم، الوقوفَ على المنهج القرآني المكنون النابض المتجدّد الذي يقود الإنسان نحو آفاق الإفادة من قابلية القرآن المجيد للهداية للتي هي أقوم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، ولن يتيسّر ذلك إلا عن طريق الاطّراح الملحّ، استنطاقا واستهداء، بين يدي كلام الله تعالى. ومن مقتضيات هذا الاطراح، التلقي المسلّم من الوحي عن طريق الإعمال المتصاعد المتنامي لمنهاجيته السارية فيه والتي تتكشف بالاجتهاد عبر الزمن، وهي منهاجية قد تبدّى من خلال ما سلف، أن من دعاماتها الأساس، الوقوفَ على بنائية القرآن المجيد، وإدراكَ أنه ترتيل، ولنا بعون الله عودة إلى الموضوع. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.



الأبـرُو

فن الرسم على الماء

بيرول بيجر*

ليس من المعروف من قام بأول عملية رشّ الألوان على الماء وتمكّن من الحصول على أشكال متنوعة زاهية ثم أخرجها على الورق، أي ليس لدينا المعلومات الكافية عن المسيرة التاريخية لفن الأبرو. ولكن المعروف هو أن هذا الفن المسمى بالأبرو، يتحلى بطابع عثماني أو بطابع تركي.

وتعني كلمة "الأبرو" عند الأتراك، حاجب العين، والورق الملون والمجزّع، أو القماش الملون بألوان مختلفة بشكل مموج يشبه حاجب العين، أو ألوان حجر الرخام. كما تأتي في التركية بمعنى الورق أو القماش الملون الذي يستخدم في تغليف الكتب والدفاتر.

الرسم على الماء

عمل الأبرو فيه لمسات فنية جمالية رائعة، ويحتاج إلى صبر وتأنٍ. وقد يتميز هذا الفن بعدم تكرار نماذجه أو بعدم تقليده. ولصنع الأبرو يحتاج الـ"أبروزَن" أي صانع الأبرو، إلى ورق يمتص الصبغات وإلى حوض على شكل مربع. فيقوم الفنان بخلط مادة بيضاء صمغية تسمى "كِتْرَه" بمقادير معينة مع الماء. وبعدها تفرغ الصبغات المجهّزة على وجه الحوض المليء بالـ"كتره". ثم تحرك البقع الموجودة على سطح الماء بالفرشاة التي يتكون رأسها من شعر ذيل الحصان أو من إبرة بأشكال متعددة. ونتيجةً لذلك تظهر أشكال مبهرة رائعة. وبعد ذلك توضع الورقة الخاصة على سطح هذه الأشكال ثم تُمسك من الأطراف وترفع ثم تقلب دون هز أو تحريك، وعندها تتشكل النماذج وبألوان زاهية وجميلة.

لقد أخذت رسوم الأبرو -في القرن السادس عشر- مكانة مرموقة بين الأمتعة الثمينة في الغرب، بعد قيام السياح الأجانب برحلات إلى الأراضي العثمانية التي بلغت آنذاك أوج ازدهارها في الفن والثقافة والعلم والتكنولوجيا.. وسرعان ما تحول هذا الفن عند الأوروبيين -في القرن الثامن عشر- إلى مُوضة لا يستغنى عنها، وطبعت رسومات الأبرو على معظم مجلدات الكتب الأوروبية.

وقد اعتنى الأتراك بفن الأبرو عناية فائقة ومارسوه مدة طويلة في الخط والتغليف. بيد أن هذا الفن لم يحظ بهوية ذاتية حتى أواخر القرن العشرين. وقد تم استخدامه بادئ الأمر من قبل أقلية من الدراويش المتصوفة لإشباع جانبهم الروحي والمعنوي. وهذا حفظ هويته وساعده على الرقي والازدهار رويداً رويدا. كما أدى هذا الاهتمام الصوفي إلى إحياء فن الأبرو من جديد، واكتسابه هوية ذاتية مستقلة بين الفنون الإسلامية الأخرى.

الأبرو مرآة للثقافة

والجدير بالذكر أن فن الأبرو لم يتميز عن قرينه فن "Suminagashi" في الشرق الأقصى بمعداته وصباغه وألوانه وأشكاله فحسب، بل بطابعه وطبيعته الخاصة به أيضاً. ولكن الميزة التي أعطت هذا الفن هوية أصيلة، هي عكسه الألوان الثقافية والفنية المتنوعة، وكشفه عن ثراء التراث في الحضارة التي عاش تحت ظلها، ومن ثم تقديمه الفن والجمال في نطاق فلسفة داخلية روحية بأبعاد تصوفية، أي أن يكون مرآة للتراث والثقافة التي انبثق منها. وليس المقصود من التراث ها هنا، العادات التي تعيشها الشعوب وتتداولها فيما بينها.

ولا نبالغ إن قلنا إن أجمل رسومات الأبرو موجودة في تركيا، لا سيما اللوحات التي يصنعها الفنانون الذين يسكنون في إسطنبول. ولقد بلغت صور الأبرو -في أيامنا هذه- مرحلة تطورية لم يسبق لها مثيل، حيث أضفت لمسة جمالية على الشكل والمعنى، أبهرت العيون وسحرت القلوب وخلبت الألباب. ولعل هذا التوسع والانتشار السريع لفن الأبرو الكلاسيكي، وبالتالي ازدياد المراكز التعليمية له في تركيا وبخاصة في إسطنبول، أدى إلى ابتعاده عن هويته الأصلية وإلى ضياع تأثيره الروحي.. إذ تأثرت قيمه بعوامل ثقافية خارجية لا تتفق مع طابعه وهويته الذاتية. وهذا الأمر يضعنا أمام شقين اثنين؛ إما أن يستمر فن الأبرو كمرآة يعكس الفلسفة الروحية والنظرة الكونية لثقافة أصيلة، وإما أن ينسلخ عن جذوره وينأى عن مفاهيمه التي تحلى بها منذ عصور ويتحول إلى فن زخارف فحسب.. ولكن رغم كل هذه التغيرات والتحولات الثقافية التي طرأت على الشعب، فإن فن الأبرو ظل قائماً يحافظ على مكانته في الحضارة الإسلامية.

ما الدوافع التي جعلتنا نتمسك بفن الأبرو إلى هذه الدرجة؟ ولماذا يُشعر هذا الفن الكثيرَ منا بأنه فن تصوفي رغم قلة الأشكال الرمزية فيه بالنسبة للفنون الأخرى؟

إن الذين اعتنوا بفن الأبرو وأورثوه الأجيال من بعدهم، وعلى رأسهم منتسبو التكية الأزبكية في منطقة أسكدار بإسطنبول، هم الذين استطاعوا بجدارة أن يغذّوا هذا الفن بروحهم ومشاعرهم وقيمهم التي زينوا بها حياتهم المادية والروحية، وتصوراتهم التي تطلّعوا من خلالها على قيمة الإنسان في الوجود.. لقد أسهم الكثير من الفنانين والخطاطين والنقاشين في تطور فن الأبرو، وحاولوا أن يحافظوا عليه بصدق على مدى الأزمان.

فلوحات الأبرو التي كانت تباع للصحّافين لتأمين حاجات الحجيج القادمين من أوزبكستان والمقيمين في التكية الأزبكية.. والدراويش الذين جردوا أفكارهم من المشاغل الدنيوية أثناء وقوفهم على الحوض، والروايات التي تذكر أن السيد "خطيب محمد" توفي حرقاً عندما أراد أن يخلّص رسوماته من الحريق.. والمجلّدون الذين غلّفوا كتبهم بزخارف الأبرو، والشيخ "أدهم هازرفان أفندي" الذي قدم أعمالا مبتكرة في مجال الفن والعلوم.. والأستاذ "نجم الدين أوقْياي" الذي اشتهر بالخط ونقش الورود ولا سيما بابتكاره لوحة الأبرو التي رسم عليها لفظة الجلالة، و"مصطفى دوزكونمان" العطار الذي استطاع أن يعيّش فن الأبرو لسنوات طويلة في منطقة أسكدار والذي أبدع الـ"أبرونامه".. بالإضافة إلى الذين ورثوا هذا الفن بحق من أجدادهم وأساتذتهم وساروا على نفس الروح والمعنى فيه... كلهم أضفوا على فن الأبرو لمسة جمالية من أرواحهم وأكسبوه مكانة رفيعة وأهمية كبيرة بين الفنون الإسلامية الأخرى.

الأبرو فن أصيل

إن فن الأبرو ليس فنا تقليديا شكليا، بل هو فن أصيل يرتبط بجذور إسلامية متينة له أسلوبه المتميز وطريقته الخاصة به، إنه يتحلى بالروح والمعنى التي تكمن في لب الحضارة الإسلامية. كما أنه فنٌ ظهر على يد فنانين استنشقوا الهواء الروحي من الإسلام ثم توارثوه جيلا بعد جيل حتى وصل إلى يومنا هذا.

والجدير بالذكر أن زهرة الزنبق (لاَلَه) والياقوتية وغيرها من الأزهار اكتسبت روحا جديداً بهذا الفن، ليس برسمها في حوض الأبرو فحسب، بل بإدراك القيم الثقافية والمبادئ

التراثية الإسـلامية التي انتمت إليها. وإذا انفصل فن الأبرو عـن هذا التراث وهذه الثقافة فَقَد روحه وتحول إلى مجرد فن تشكيلي لا أكثر ولا أقل.

ولعل الذين مارسـوا فن الأبرو وأوصلوه إلى يومنا هذا -وعلى رأسهم أهل التكية الأزبكية- هم أهل التصوف ممن نهلوا من روح الثقافة الإسلامية وعاشوا في ظلها. لذا فلا يحق لنا أن ننسى الجانب التصوفي لفن الأبرو هذا.

ولا يعني كل ما ذكرناه، أن نحصر فن الأبرو في إطار معين محدود، إنما هناك جوانب أخرى تعتبر امتدادا لهذا التراث وهو إعداد المواد الطبيعية التي تُستخدم في هذا الفن.

وليس المقصود من الارتباط بالتراث، أن نكرر نفس النماذج ونبقى على نفس الوتيرة النمطية، إنما المقصود أن نسير ضمن الأساليب التقنية والفلسفية التي تكوّن الأسس الفنية الإسلامية، أو أن ننجز عملاً فنيـاً يعتمد على عناصر التجريد والتنميق والتنويع والتفاني، مما يتيح لنا رؤية فنية تأملية تسـاعدنا على إدراك جمال الوجود وفهم الذات الإنسانية والحقيقة الربانية.

أما بالنسـبة للفكرة التي يمثلها برعم الوردة في فن الأبرو فهـي "الوحدة"، وأما الوردة المتفتحـة فتدل على "الكثرة" المنبثقة من هذه الوحدة. كما ترمز الوردة المتفتحة أيضاً إلى تمام الكمال، وإلى سمو الروح، وإلى مراتب الإدراك التي تكمن بين "الوحدة" و"الكثرة" هذه. ولا يمكن أن تقدَّم هذه المعاني في أشـكال أو زخارف أخرى، كما لا يمكن أن يمثل شكل من الأشـكال دور الوردة ويوحي بنفس المعنى والروح التي تحملـه في ذاتها. في حين إن هذه المعاني الدلالية لا تُعرض في كل مرة بشكل مختلف، بل تستظل كل الأشكال والزخارف تحـت ظل الوردة ومعانيها. ولعلنا إذا نظرنا إلى نبتة الملفوف نرى أنها تمثل علاقة وطيدة جداً بين الوحدة والكثرة، بيد أن هذا التمثيل لا يرتقي أبداً إلى مستوى الوردة ودلالتها.

أمـا النقاشـات التي دارت حـول أصالة فـن الأبرو والتجديـدات التي طرأت عليه فلم تأتِ بنتيجة ملموسـة، وذلك لاختلافاتٍ حـول الجذور والثقافة والهوية لهذا الفن. ولو كانت هذه النقاشـات حول فلسفة الفن وحول مبادئه وأصوله بدلا من الأنماط والأشـكال والتزيينات الظاهرية، لَبلغ الفن إلى الذرى، ولبقي يمارَس بصدق وإخلاص لأزمان طويلة. وإن انكماش النقاش حول النمطية والأشكال فقط، يعني الاسـتغناء عن الأبعاد الروحية والمعنوية ومن ثم الابتعاد عن الجذور والذات.

فنٌ لا يعبر عن الذات مباشرة

لا يقوم الفنان في فن الأبرو بالتعبير عن نفسه أو ذاته مباشرة. حتى وإن بدى ذلك، فهذا لا يعني إلا انعكاساً طبيعياً للألوان التي استخدمها أو للأسلوب الذي ابتكره. كما أن الأشكال الـتي يختارها الفنان لا تدل إلا على فكر أو مفهوم اسـتمد روحه من الثقافة والحضارة التي نشأ فيها ونما.

فإن فن الأبرو أي الأبرو التقليدي، هو فن يأخذ بالمرء إلى أعماق النفس والذات، ويسـمو بالذات إلى ما وراء العوالم، حيث يشـدّ ألباب المهتمين به إليه، ويعيدهم إلى جوهرهم الأصلـي دون إدراك منهم. ولكن هذا لا يعني أن الأبرو هو السـبيل الوحيد في الوصول إلى هذا المبتغى، بل هو وسـيلة لتخلية الأذهان من الأفكار المرهقة وتجريدها من الشـوائب، أي إنه أداة مهمة للتركيز والإمعان.

والمقصود من كل ما ذُكر، أن الفنان لا يسعى إلى التعبير عن نفسـه أو عن الأشياء التي يرغب في التعبير عنها، بل إلى تجريد نفسـه من كافة القيود الخارجية محاولاً إيجاد سبيل له في عـالم المعنى. فقد حملت الفنون الإسـلامية الأخرى هذا الروح أيضاً، وسـعت إلى التعبير عن القدرة الإلهية في إبداع هذه الجماليات التي تحلّت بها الكائنات. إلى جانب ذلك فقد سيطر على فن الأبرو فكرة التجريد أو تجريد الفنان نفسه من عالم المادة والجنوح بها إلى عالم المعنى.

فنٌ ذاتي وبعيد عن النمطية

إن فن الأبرو لا يسعى إلى نقل أفكار ومعتقدات وأحاسيس الفنانين المتوغّلين في عوالمهم الداخلية. إنما يتطلّب الأمر إرادة ورغبة قوية مـن الفنان وصرفَ جهـودٍ جاهدة منه، كما أن الأشـكال والزخارف التي تحلت بـروح ومبادئ الثقافة والحضارة الإسـلامية، تؤدي رسالتها إلى المشاهد أو المتفرج من تلقاء نفسها. وقد تختلف إيحاءات هذه الرسالة من شخص لآخر حسب تصوره الشخصي.

إن فـــن الأبرو فـــن ذاتي في كل مراحله، كما أن جلب المواد اللازمة ثم تحضيرها واســـتخدامها تكون بجهود ذاتية مـــن الفنان. ولعل هذا الفن يتطلب أثناء التعليم أشـــخاصا عـــدة، لكنه عند التطبيـــق يكون ذاتياً بالتمـــام. ذكرنا أن الفنـــان يعدّ الألوان بنفســـه، إذ كلما أبدى مهارة في إعداد الأصبغة والألـــوان وقام بنقشـــها على المـــاء، ازداد الأثر قيمـــة وازداد الفنـــان متعة ولذة. أو بتعبـــير آخر فإن هذه المراحـــل العملية في فن الأبـــرو والاهتمام الـــذاتي، يجعل الفنان يتلذذ بأداء فنه ويســـتفيد منه ويزيد عليه ويجدد فيه.

فن الأبرو هو فن يريح النفس ويجردها من العالم الظاهري، كما أنه فنٌ تجريدٍ يدفع المرء إلى الإمعان في التفكير ويشـــفي بذلـــك روحه وقلبه. إنه فن يجب أن يقـــدَّم إلى المهتمين به بنفس الروح ونفس المعـــاني الذي تحلى بها منذ القدم. كما أنه وسيلة لشفاء الروح وراحة النفس ورخائها وتغلغلها في العالم الداخلي عن طريق التجريد، ودواء للأمراض النفسية، ووسيلة لإزالة القلق والاضطراب.

الفصل بين الإرادة الجزئية والكلية

لا شك أن أصحاب البصيرة يشاهدون تجليات الإرادة الكلية والإرادة الجزئية في كل أطراف الحياة. إلا أنه ليس من السهل أن يشاهد العقل المتقيد بالأسباب تجلياتِ هاتين الإرادتين في آن واحد. وإن فن الأبرو فن يوضح مكانة الإرادة الجزئية من الإرادة الكلية ويضع الفاصل البارز بينهما؛ إذ ليس للصدفة مكان في هذا الفن، ولا يمكن للفنان الذي يقوم بإنتاج عمل ما -وهو يراعي الأسباب- أن يعرض الصورة التي يفكر بها أو يخطط لها بالشكل الذي يريدها بالتمام.

وقـــد نرى في بعض الأحيان أن الفنان يحصل على نتيجة فـــوق الـــتي كان يتوقعها أو يتصورهـــا. وفي الحقيقة هناك صورة معينة في مخيلة كل فنان، ولعل الفنان ينســـاق حسب الأشـــكال أو الصور التي تتكون نتيجة وقع قطرات الألوان على ماء الحوض، أي إنه لا يســـتطيع أن يتصرف بالألوان والأشكال كيفما يريد، حتى إنه لا يستطيع أن يحلل الشكل النهائي للصورة التي وضعهـــا في مخيلته تماماً إلا بعد اقترابها من الانتهاء. وقد وضع فنانو الأبرو مصطلح "لا تكون كلمة الفصل إلا للحوض"، أي إنه صاحب القول الفصل.

رحلة من الكثرة إلى الوحدة

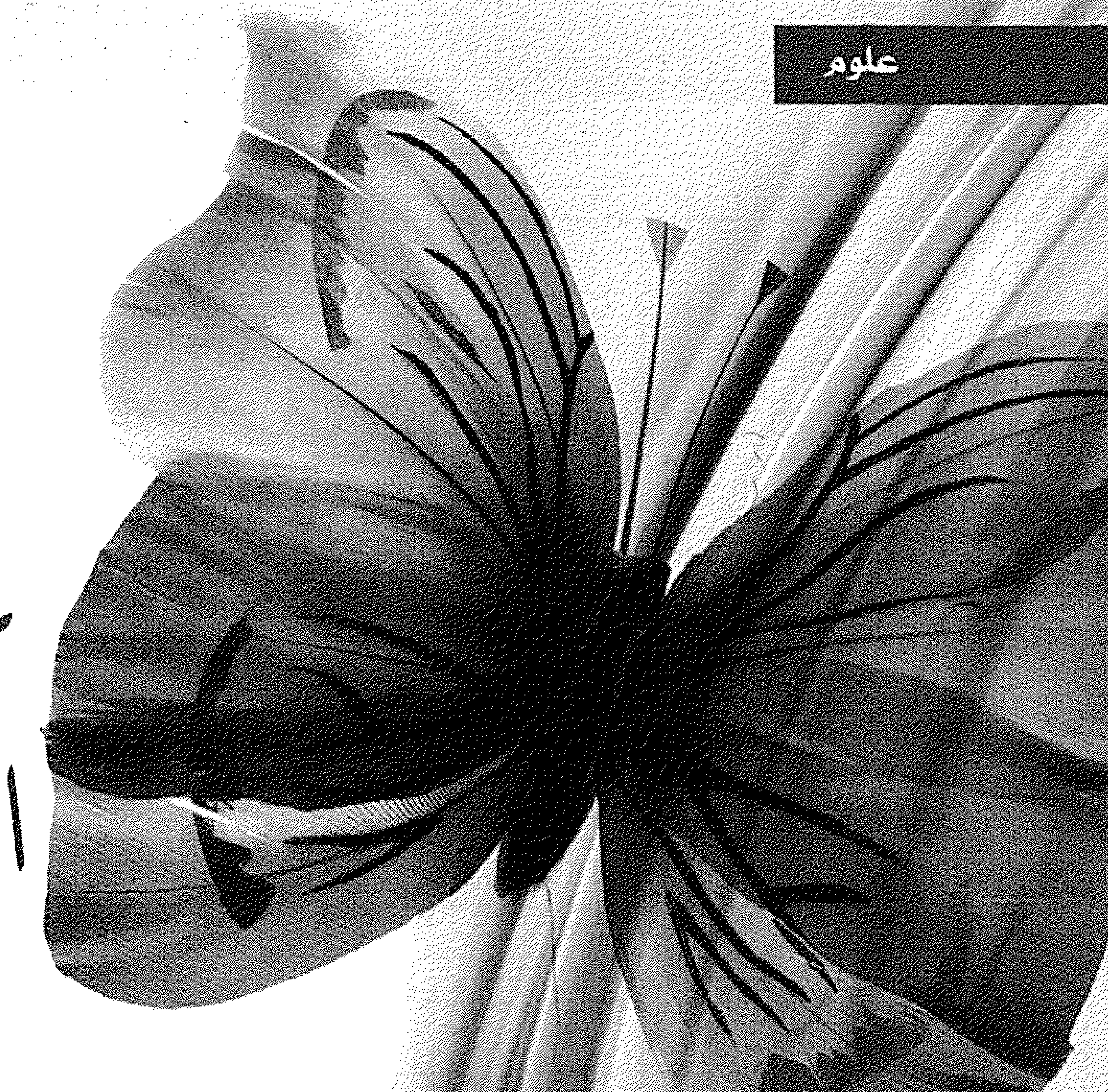
ومن أبرز سمات الأبرو أنها توجهٌ من الظاهر إلى الباطن ومن الكثرة إلى الوحدة، أي إنها توجّه الإنسان إلى داخله وتجرده عن الظاهر ذهناً وفكراً ثم تســـير به من الكثيرة إلى الوحدة. فالإنســـان يتمكن بهذا الفن من الهروب من العالم الخارجي والتّوغل في العالم الداخلي حيث جوهره وأصله.

إن فنان الأبرو هو الذي يقوم بتحويل الرســـومات التي يرسمها على ســـطح الماء من صورة مؤقتة إلى دائمة، وذلك بنقلها إلى سطح آخر. وهو ما يدل على أن المخلوقات الفانية تصبح باقية عندما تُنقل إلى سطح أو بُعد آخر. ولعل الأشكال المرســـومة على سطح الماء هي تعبير عن الفناء كالحياة الدنيا تماما، كما أن نقل هذه الأشـــكال إلى سطح الورقة إنما يدل على البقاء كالآخرة.

أمـــا الوجود فله وجهان؛ وجه ينظر إلى البقاء ووجه إلى الفنـــاء. وعلى الرغم من أن الأشـــكال لم تتكون من تلقاء نفســـها على سطح الماء، فإن هناك إرادة أوجدتها. والوجود أيضاً لا يتصف بصفة البقاء إلا إذا انتقل إلى سطح يمكّنه من البقاء من قبَل القدرة الإلهيـــة والإرادة الربانية التي أوجدت فيه سمة الفناء. ولا يمكن للماء ولا للورق ولا للأشـــكال أن تقدر علـــى تحقيق هذا البقاء، بل القدرةُ والإرادة المنبثقة من عشق الفنان والذي يمثّل القدرة الإلهية بحق، هو مَن يحقق هذا البقـــاء. وإذا نظرنا إلى فن الأبرو من هذه الزاوية، ندرك أن الحوض يمثل الكائنات، والمادة البيضاء الصمغية (كِثْرَه) تمثل عالم الشهود، والفرشاة والألوان تمثل دائرة الأسباب، والفنان يمثل الإرادة والقدرة الإلهية.

ولا نبالـــغ إن قلنا أخيراً إن فن الأبـــرو هو فن تتجلى فيه كل جماليات ومحاســـن الوجود، وما الوجود إلا تجلّ من تجليات الجمال المطلق. ■

(*) أستاذ فن الأبرو / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.



عندما تحرك الفراشة جناحيها

صالح آدم*

توضع النظريات الفيزيائية لتقديم نماذج تشرح بُنية الكون وكيفية عملها. وقد قام "نيوتن" والعلماء المعاصرون له بوضع أسس العلم الحديث، أو بالأصح بوضع أسس الفيزياء الكلاسيكية. وفي الكون -حسب هذه الفيزياء- نظام دقيق متداخل مع فوضى كبيرة. هذا النظام يعمل حسب آلية ميكانيكية دقيقة. كانت أجزاء الكون -حسب هذا الأنموذج- تتأثر وتؤثر بعضها في بعض بقوى مختلفة، وتتحرك هذه الأجزاء ضمن حركات معينة تحت تأثير هذه القوى وتحت تأثير وضعها في البداية. ونظرًا لقيام الفيزياء الكلاسيكية بحساب الحوادث الفيزيائية المختلفة -التي تبدو وكأنها لا رابط بينها- بدءًا من حركة كرة البيلاردو إلى حركة الأجسام الفضائية، ومن ظاهرة انتقال الحرارة إلى التموجات الصوتيه حسابًا صحيحًا بقوانين قليلة (القوانين الثلاثة لـ"نيوتن"). فقد أصبحت تلك الفيزياء حقيقة مسلّما بها، لا تحتمل أي نقاش أو شك فيها طوال عصور ثلاثة. وهذا النجاح الكبير بهر أعين المفكرين وأثّر على نظرتهم للعالم، بل دعاهم إلى محاولة وضع نظريات مشابهة في علوم الاجتماع.

نقد الفيزياء الكلاسيكية

ولكن النظرة إلى العالم التي شكّلتها الفيزياء الكلاسيكية تعرضت في بداية القرن العشرين إلى نقدين، جاء أحدهما من النظرية النسبية التي وضعها "أنشتاين" ونفى فيها وجود الزمان المطلق والمكان المطلق، ووضع بدلا منهما زمانا ومكانًا يختلفان حسب وضع الشخص

المراقِب، وأنهما يتغيران حسب مقدار وكمية الكتلة الموجودة في جوار ومحيط الأشـيـاء. أما النقد الثاني فجاء من "النظرية الكمية" (Quantum Theory) التي قامت بمعارضة أساس من أسس العلم وهو مبدأ "السبب-النتيجة". وذكرت بأنه لا يمكن إجراء عملية قياس دقيقة في أي منظومة دون التأثير فيها وتغييرها.[1]

ويجب هنـا ملاحظة أمر هام وهـو أن ظهور بعض أخطاء الفيزياء الكلاسـيكية لا يعني أنها باطلة تمامًا وخاطئة و لم تعد لها أي أهميـة أو دور؛ لأن النظريـات الفيزيائية هي نماذج في نهاية المطاف توضع لشرح الحقائق، كما تستطيع الفيزياء الكلاسيكية تفسـيرَ وحلَّ معظم المسـائل اليومية التي نواجهها بدقة كبيرة. ولهذا السـبب أظهرت التجارب والمشـاهدات صحتها طوال عصور ثلاثة. كما نستطيع بها حساب أوقات كسوف الشمس وخسوف القمر ورحلة صاروخ في نظامنا الشمسي وغيرها من الأحداث الفيزيائية والمادية بدقّة كبيرة.

ذكرت النظرية النسـبية أن نظرية نيوتن لا تكون صحيحة في السـرعات الكبيرة التي تقترب من سـرعة الضوء، وكذلك في الأجسـام الفضائية الهائلة الكتلة كالثقوب السوداء والنجوم النيوترونية التي تملـك قوى جذب كبيرة. وكما ذكرت النظرية الكمية فإن نظرية نيوتن لا تصح في تفسير الحوادث الجارية على المستوى الذرّي، أي إن النظرية النسبية والنظرية الكمية تصحّ في السـرع الاعتيادية في حياتنا -حتى سرعة الصاروخ لا تبلغ جزءًا من ألف جزء من سـرعة الضـوء- وفي الأحجام التي تزيد على $١٠^{-٥}$ سم وتكون نتائجها مساوية لنتائج الفيزياء الكلاسيكية.

نقد "الحتمية" وظهور نظرية الفوضى

وفي ستينيات القرن الماضي تلقّت النظرية الحتمية نقدًا ثالثا من علم بـدأ ينمو ويتطور. كان هذا العلم يبحث عن ظواهر "الفوضى" التي لاحظها العلمـاء في العديد من الحوادث بدءًا من ديناميكية السـوائل إلى الظواهر الجوية إلى بيولوجيا السـكان إلى النظم الاقتصادية. والسبب الذي أدّى إلى ظهور "الفوضى" كفرع من فروع العلم هو أن العلماء الذين كانوا يعملون في ساحات مختلفة لاحظوا عند بحثهم عن حلول للمشـاكل التي تظهر أمامهم أنهم يرون حلولا في شـكل نماذج تكون متشابهة؛ حتى إنهم توصلوا إلى حلول مشـتركة تعود لمسائل مختلفة. ظهر هذا الأمر ليس في الساحات العلمية التي تتطلب اختصاصات معينة، بل في الساحات التي تتقاطع فيها ساحات بعض العلاقات العلمية. رأى العلماء هنا أن النماذج التي تشـرح التصرفات التي تبديها المنظومات المعقدة نماذج متشابهة. والمنظومات المعقدة تتألف من أجزاء عديدة جدًّا، يؤثر كل جـزء في الأجزاء الأخرى، ويتأثر هو أيضا بها، وهناك سـاحات حرة عديدة فيها؛ أي إن هنـاك احتمالات لتصرفات عديدة لها، وهي عادةً منظومـاتٌ مفتوحة[2] تدخل إليها المواد والطاقة وتخرج منها، أي ليست منظومات مغلقة. ومن أمثلة هذه المنظومة هي المنظومات البيئية التي تُشـكِّلها بعض أنواع الأحياء في منطقـة جغرافية معينة، والعناصر الجوّية المختلفة الموجودة معًا كالمقادير المختلفة من الضغط الجـوّي والرياح والحرارة وأنواع النباتات التي تغطّي تلك المناطق، أو المنظومات المعقدة المتشـكلة من مجموعات كبيرة من الخلايا العصبية المتخصصة التي تعمل معًا في أدمغتنا بتلاؤم دقيق.

والعلمـاء يعملون حاليًـا على منظومات أقـلّ تعقيدًا من المنظومـات المذكورة أعلاه، مثل معدل التغير السـنوي في عدد نوع معين من الأحياء في منطقة معينة، أو درجة انسـيابيةِ سائلٍ يملك لزوجة معينة في أنبوب، أو التموجات الحاصلة في البورصة لسعر سلعة من السلع... هذه هي المسائل أو المشاكل التي يتناولها العلماء حاليًا كبداية لحل مشاكل ظواهر "الفوضى".

ولكن العلم -لنأخـذ الفيزياء مثلا- على الرغم من أنه قَطَع مسافة كبيرة في ساحات عديدة بدءًا من الأجزاء دون الذرية إلى المجرات الهائلة، إلا أنه لم يسـتطع وضع نظرية تشرح الحركات المعقّدة لسـائل ذي لزوجة معينة يسيل في أنبوب، ولا حساب حركات الدوامة والاضطراب الذي يظهر فيها بعد سرعة معينة. وعلى الرغم من أننا نملك معلومات بدرجة ما حول كيفية عمل بعـض الظواهر مثل كيفية تزايد أعداد الأحياء، أو كيفية التطور الاقتصادي، إلا أننا لا نستطيع حدسَ أو معرفةَ كيفيةِ تطور هذه الظواهر وكيفية تغيرها، وعلى أي أساس يحصل هذا التغير بشكل قاطع. ولذا فهناك علم ولد جديدا يحاول وضع أسس عالمية لمثل هذه المنظومات وخصائصها المشتركة ويهدم الجدران الاصطناعية بين العلوم. والسبب الكامن وراء عدم وضع تعريف عام يقبل به الجميع لهذا الفرع الجديد من العلم الذي ندعوه بـ"علم الفوضى"، هو أن إطاره واسع جدًا وهو يشمل مواضيع عديدة جدًّا وحوادث ذات أبعـاد مختلفة، لذا يجب تناولهـا بمفاهيم جديدة ومتطورة، لأن تاريخ هذا الفرع العلمي حديث لا يتجاوز ٤٠-٥٠ سـنة.

شرح مفهوم "الفوضى"

إن أردنا التعبير عن مفهوم "الفوضى"، قلنا: إنه يعني عدم النظام واختلاط الحابل بالنابل والانفلات. ولكن تم إغناء مفهوم هذا الفرع الجديد من العلم بإضافة معان هندسية وعلمية له، لذا فلا يمكن شرح مفهوم "الفوضى" بعدّة جمل. ولكن يمكن شرح كيفية ظهور "الفوضى" وفي أي الظروف تظهر وما النتائج التي تتولد عنها. عندما نقوم بهذا نحصل على فكرة وصورة لهذا المفهوم.

والذي أدّى إلى زيادة الاهتمام بمفهوم "الفوضى" وعده انقلابًا في العلم، هو أن نظامًا معيّنا يسير حسب قواعد معروفة ويتطور بشكل معلوم، فإذا به يتصرف فجأة بشكل فوضويّ. لنأخذ مثالا حول عدد نوع من أنواع الأحياء يعيش في جزيرة. هذا العدد مرتبط بعوامل عديدة؛ منها سرعة التوالد، ومقدار الأغذية الموجودة في الجزيرة، وعلاقةُ وتأثير الأحياء الأخرى الموجودة حواليه... إلخ. وكذلك مثال عدد السيّارات التي تَرِد إلى محطة بنزين معيّنة، أو عدد المراجعين من المرضى لقسم الطوارئ في أحد المستشفيات وساعات هذه المراجعات. في هذه النماذج تعد العوامل المختلفة ثابتة ولا تتغير مع الزمن، وذلك من أجل سهولة الحساب. ومع هذا نرى نتائج غير متوقعة حتى في أبسط هذه النماذج، فمثلا إن كان معامل (Coefficient) التكاثر الذي يعبر عن نسبة التكاثر ونسبة الموت وضبط التوازن بين التكاثر والموت، أكبر من حد معين استحال حساب تغير أعداد ذلك الحي حسب السنوات بأي معادلة من المعادلات. لأن عدد النفوس في كل سنة سيأخذ مقدارًا متغيرًا، أي إن ظاهرة ما تتبع عادةً قوانينَ (السبب-النتيجة) أي "الحتمية"، يمكن أن تنقلب إلى ظاهرة غير منتظمة وغير متوازنة. وأمر آخر مشابه يظهر في حركة انسيابِ سائلٍ ذي لزوجة معينة (أي يولد انسيابه قوة احتكاك)، فالسوائل تتبع القوانين الديناميكية لنيوتن في حالة الانسياب الاعتيادي بشكل جميل، ولكن ما إن تزيد سرعة الانسياب عن حد معين حتى تتولد الدوامات وحركات مضطربة وفوضوية لا تتبع أي قانون.

ظهور الفوضى

يرتبط ظهور الفوضى في أي منظومة بحدود وقيم متغيراتها من جهة وبحالة بداية تلك المنظومة وتركيبها من جهة أخرى. وتظهر الفوضى عادة عندما تكون المنظومة غير مستقرة، (أي عندما لا تكون لديها قابلية إنتاج طاقة، وكذلك عندما تكون بعيدة عن الاستقرار الديناميكي الحراري). والأهم هنا عدم كون المنظومات خطية، لاحتمال ظهور الفوضى في منظومة غير خطية وإن كانت المنظومة بسيطة.[٣] والمنظومات غير الخطية لها علاقة بمشتقة المعادلة الرياضية التي تشرح العلاقات فيها. لذا فإن حلها يكون أصعب من حل المعادلات الخطية، بل يستحيل أحيانًا هذا الحل؛ لأن العلاقات في المنظومات غير الخطية تتبدل في لحظة التغير. فالحالات التي يكون فيها الاحتكاك مرتبطاً بالسرعة أو عدد السكان في حالالت ديناميكية هي حالات تكون فيها المنظومة خطية. فإذا كان الاحتكاك مرتبطاً بالسرعة وتغير السرعة بالاحتكاك المؤثر على سرعة الجسم، فإن تغير السرعة مرتبط إذن بالسرعة نفسها. في مثل هذه الحالات وبخاصة عندما تكون المنظومة مفتوحة، تظهر تصرفات وتغيرات غير متوقعة. فمثلا تتغير مقاومة الهواء لحركة البندول بمكعب سرعة البندول، فإن تم تسليط قوة من الخارج إلى هذا البندول فإن هذه القوة -بعد حد معين من مقدارها- تؤدي إلى حركة فوضوية للبندول الذي يقوم بحركات غير متكررة بعدد لانهائي، ولا يمكن معرفة المدارات التي يرسمها هذا البندول ضمن مستوى معين ذي بُعدَيْن. لذا فإن من خصائص النظم الفوضوية أنها تقوم بتحقيق جميع البدائل المختلفة والممكنة عندما يكون هناك زمن كافٍ.

قانون الأنتروبيا

تناولت الفيزياء الكلاسيكية -في أغلب الأحوال- النظمَ المتوازنة، وَوَضعت قوانينَ الديناميكية الحرارية حسب هذه النظم. أحد هذه القوانين -وربما أهمها- هو قانون "الأنتروبيا". والأنتروبيا يعد مقياسًا للفوضى، وهو يزداد على الدوام في النظم المغلقة. فإن طبّقنا هذا القانون على الكون ككل نقول: إن الكون كان في بدايته منظمًا بدرجة كبيرة، ثم بدأت الفوضى بالزيادة فيه، وفي النهاية عندما تتساوى الحرارة بين كل أجزائه[٤] تتوقف جميع الفعاليات والتفاعلات. أما النظم المفتوحة، أي النظم التي تأتي إليها الطاقة والمادة من الخارج، فهي نظم غير مستقرة في الأغلب، وهي -حسب الديناميكية الحرارية- نظم أهمل تدقيقها، كما أن تدقيقها صعب بدرجة كبيرة. وقد اهتم العالم "بريغوغين" وأصدقاؤه بهذه النظم وتوصلوا إلى نتائج تسترعي الانتباه.

فالدوامات التي تحصل في نهر سريع الجريان، والدوامات الهوائية،



والأعاصير التي تحصل في الطبقات الجوية، والأشـــكال المعقدة التي يشكلها بندول متحرك، والأشكال الزخرفية المعقدة التي تتشكل بعد بعض التفاعلات الكيميائية، أمثلة على البنى المعقدة التي تُشكّلها المنظومات غير المستقرة نتيجة قوى خارجية تؤثر فيها. ولكن يجب معرفة التعاريف العلمية والتكنيكية للمصطلحات الواردة هنا من أمثال "المنظومة" و"المعقد" و"النظم المســـتقرة وغير المستقرة" وملاحظة معاني هذه المصطلحات والتعاريف. فمثلا يعرض لنا نهر يســـيل ببطء سَيَلانًا هادئًا ومستقرًّا، ولكن ما إن تزيد سرعة التدفق عن حد معين حتى تتشكل الدوامات فيه، أي تظهر هنا بُنى جديدة وهي بنى الدوامات. ولما كانت هذه البنى الجديدة معقدة التركيب وأكثر ديناميكية، لذا يقال: إن النهر أصبح أكثر نظامًا من حاله الأول القريب من الركود، أي إن درجة النظام في أي منظومة تقاس بمقدار تعقدها وليس ببساطتها. ولا يعني التعقيد هنا، الفوضى وعدم النظام، بل هو مصطلح يعبر عن ارتباط أجزاء عديدة ارتباطًا بنيويًّا ضمن علاقات خاصة لتحقيق مهمات معينة. ولا شك أن هذه المصطلحـــات لا تزال مبهمة من الناحية العلمية، و لم يتم التوصل حولها إلى إجماع في القبول. ولكن هناك مساعٍ عديدة تبذل حاليًّا حولها، وهي محل اهتمام خاص.

فإن أردنا التلخيص نقـــول بأن الاحتكاك الذي يعد في نظر فيزياء نيوتن (أي الفيزياء الكلاســـيكية) عنصرًا ضارًّا يعوق الحركة والطاقة ويعمل ضدهما.. هذا الاحتكاك يؤدي إلى تشـــكيل منظومات جديدة وبنى معقدة في بعض المنظومات المفتوحة وغير المستقرة. ثم إن الاحتكاك والمقاومة وغيرها من القوى غير المرغوب فيها عادة قد تلعب دورًا في توليد النظام، وهذا يشـــير إلى وجود الجمال والفائدة في كل شيء بالمعنى المطلق.

خواص النظام الفوضوي وتجربة لورنز

أهم خاصية من خواص النظام الفوضوي كونه مرتبطًا بظروف بدايته بشكل حساس، وأفضل مثال على هذا ما نراه في التقلبات الجوية. ففي الستينيات عندما بدأ استعمال العقول الألكترونية (الكومبيوتر) لأول مرة حاولوا الوصول إلى تخمين التقلبات الجوية بوضع الظروف الجوية المختلفة في أنموذج ووضع برنامج لحل هذا الأنموذج. قام أحد أخصائيي الأنواء الجوية واسمه "أدوارد لورنز" بوضع برنامج بســـيط أراد من ورائه الوصول إلى تخمين التقلبات الجوية. وما حدث له كان إشارة إلى ولادة علم جديد.

كان "لورنز" يعلم أن التقلبات الجوية تجري حســـب قوانين معينة. لذا وضع في جهازه للعقـــل الألكتروني أنموذجًا للتقلبات الجوية، ووضع ١٢ معادلة مرتبطة بتقلبات الحرارة والضغط وســـرعة الريـــح... إلخ. كان يأمل منها حل العلاقات الموجـــودة بين هذه العوامل المتغيرة والمؤثـــرة في التقلبات الجوية والتوصل إلى تنبّؤ صحيـــح للأحوال الجوية. فقد تم التوصل مثـــلا إلى تواريخ ظهور مذنب "هالّي" وموقعه بالنسبة للدنيا في كل مرة بشكل مسبق، وذلك باستعمال قوانين نيوتن بعد حســـاب كتلة الشمس وكتل كواكب المجموعة الشمسية ومواقعها وسرعاتها..

إلخ، لذا خطر بالبال بأننا إن قمنا بمعرفة الشروط المختلفة للأنواء الجوية -التي تشكل منظومة أعقد من مثال مذنّب "هالي"- من خلال تثبيت الآلاف من أجهزة قياس الحرارة والضغط وغيرهما من العوامل المؤثرة في الأنواء الجوية في مختلف الأماكن، ومعرفة هذه الظروف والشروط في فترة زمنية محددة، وأدرجنا هذه المعلومات في العقل الألكتروني، استطعنا التنبؤ مسبقًا بالأحوال الجوية المتوقعة بعد فترة أو بعد زمن محدد. والعنصر الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى مشكلة هو مدى صحة المعلومات والقياسات التي نحصل عليها في البداية، والبعد قدر الإمكان عن أخطاء القياسات الأولية. ولكن كان من أهم فروض العلم الكلاسيكي ما يأتي:

"إن كنا نعلم الوضع الأولي لمنظومة ما بشكل تقريبي، وكنا نعرف أيضًا القوانين السارية فيها، استطعنا معرفة التصرف التالي للمنظومة بشكل تقريبي". يقول أحد علماء الفيزياء النظرية: "من أهم أسس التفكير العلمي الغربي هو أننا عندما ندقق حركة كرة بيلياردو فوق منضدة، نستطيع أن نهمل حركة سقوط ورقة في كوكب في مجرة أخرى، لأنه يمكن إهمال التأثيرات الصغيرة جدًا."

واستنادًا إلى هذا الأساس قال علماء الأنواء الجوية بأن المعلومات التقريبية ستعطي لنا معلومات تقريبية أو نتائج تقريبية عند حساب التوقعات الجوية.

كان "لورنز" يفكر هكذا أيضًا، لذا سجل المعلومات الأولية في جهازه مراقِباً ما ستكون عليه الأحوال الجوية. وفي أحد الأيام أوقف حساباته لأنه كان يريد فحص بعض أجزاء نواحي تطورِ وتغير الأنواء الجوية. ثم عاد إلى جهازه وأدخل فيه النتائج التي توصل إليها حتى تلك اللحظة. شغّل جهازه ثم خرج للترويح عن نفسه وشرب القهوة. وعندما رجع بعد ساعة رأى شيئًا لم يكن يتوقعه، فالخطوط البيانية التي كانت تشرح وتشير إلى حالة الأنواء الجوية منذ قيامه بوضع حساباته، كانت تختلف عن الخطوط البيانية الجديدة، أي إنها اختلفت بعد مرور فترة زمنية عليها، وكان هذا يؤدي إلى اختلاف كامل في التوقعات بعد عدة أشهر. فكّر في الوهلة الأولى أن هناك عطلاً ما في جهازه، ولكنه فهم ما حدث بعد حين. تذكر أنه عندما ألقم جهازه بالمعلومات استعمل معلومات تقريبية؛ فمثلا بدلاً من أن يلقم جهازه بعدد (٠,٥٠٦١٢٧)، ألقمه بعدد تقريبي له هو (٠,٥٠٦). وهذا التقريب الذي يبلغ أقل من جزء من ألف جزء تقريب مقبول في الأقمار الصناعية المخصصة للأنواء الجوية. وقيام هذه الأقمار بتسجيل الحرارة بكفاءة جزء من ألف جزء من درجة الحرارة يعد نجاحًا كبيرًا. غير أن خطأً في الأرقام وفي المعلومات يبلغ جزءًا من ألف جزء يكبُر بمضيّ الوقت حتى يبلغ هذا الخطأُ مائة بالمائة، أي إن جميع المعلومات الأولية المسجلة تصبح دون أي فائدة جراء هذا الخطأ الصغير أو هذا التقريب.

لذا فلكي نحسب تقلبات الجو المستقبلية بدقة، علينا أن نعرف القيم الأولية بدقة كبيرة. وهذا ينطبق على أي منظومة ديناميكية أخرى، غير أنه بينما يكبر الخطأ بمرور الزمن في النظم الخطية بشكل خطي، يكبر الخطأ في النظم غير الخطية بشكل يتعلق بمعادلة المنظومة، أي إن زيادة الخطأ في النظم غير الخطية تكون بشكل متسارع جداً بحيث يستحيل تخمين التقلبات الجوية لزمن طويل؛ لأن الخطأ يكبر هكذا في منظومة من الدرجة الثانية (١٠، ١٠٠، ١٠٠٠،... إلخ).

فكّر بعض الباحثين بأننا إن استخدمنا نماذج متقدمة للأنواء الجوية وأجهزة كومبيوتر متقدمة جدًّا سنحصل على تخمينات أفضل ولمدة أطول. لذا استخدموا في الولايات المتحدة الأمريكية كومبيوتراً متقدماً جدًّا اسمه (Control Data Cyber ٢٠٥) حيث يستطيع إجراء ملايين العمليات في الثانية الواحدة، بينما كان الكومبيوتر البدائي الذي استخدمه "لورنز" يستطيع إجراء ٦٠ عملية فقط في الثانية. وبينما اكتفى "لورنز" باستعمال ١٢ معادلة، فقد حُمّل الكومبيوتر العملاق (٥٠٠,٠٠٠) معادلة. وتناولت هذه المعادلات حساب كل المتغيرات المتعلقة بالجو بدءًا من تغير الحرارة نتيجة تكاثف الرطوبة، إلى تأثير الجبال على هبوب الرياح... إلخ. وانهالت المعلومات وقياسات المتغيرات الجوية (حرارة، ضغط، ريح... إلخ.) من جميع الولايات الأمريكية ومن الطائرات في الجو ومن الأقمار الصناعية ومن السفن إلى هذا الكومبيوتر العملاق. ومع كل هذه المحاولات والجهود فلم ينجح تخمين التقلبات الجوية إلا لمدة يومين أو ثلاثة أيام فقط. ثم ابتعدت هذه التخمينات بعد هذه المدة عن الواقع. أما بعد أسبوع فلم تعد للتخمينات أي قيمة.

نظرية تأثير الفراشة

وهناك مصطلح "تأثير الفراشة" وضع بشكل نصف جدي ونصف هزلي، وهو يقول بأن فراشة عندما تهز جناحيها في



"طوكيو" فليس بمستبعد أن تُحدث هذه الهزّة عاصفةً في "نيويورك" بعد شهر. وذلك لبيان كيف أن الأنواء الجوية نظام فوضوي ومعقد وتؤثر فيه عوامل عديدة جدًّا، وكيف ولماذا يستحيل تخمين التقلبات الجوية بعد فترة معيّنة بسبب تضاعف التأثيرات والمتغيرات والأخطاء الدقيقة والصغيرة جدًّا، وتضخمها بسرعة كبيرة. والأمر الذي نريد التنبيه إليه هو أن العواصف لا تتشكل بتأثر التيار الهوائي التي تحدثها الفراشة، لأن الطاقة موجودة في الجو، ولكن المهم توجيه هذه الطاقة. أي إن حدوث تغيرات عديدة في الجو مرتبطة بالظروف والشروط الموجودة في بداية النظام بشكل حساس جدًّا. وهناك عملية حسابية أخرى تذكر أن غياب تأثير قوة جاذبية ألكترون واحد في مجرة أخرى في الطرف الآخر من الكون، قد يُحدث بعد ثلاثة أو أربعة أشهر عواصف في كوكبنا.

وكما ظهر آنفًا، فقد تبين خطأ المقولة العلمية الكلاسيكية الغربية: "إن علمنا القوانين الأساسية المؤثرة في منظومة، وكنا نعلم الظروف الأولية لها بشكل تقريبي نستطيع حساب التطورات المتوقعة لها بشكل تقريبي حسب الفترات الزمنية القادمة". لأن بعض المنظومات مرتبطة بشروطها وظروفها الأولية ارتباطًا وثيقًا وحساسًا جدًّا. لذا فأنت لكي تعرف ما ستؤول إليه هذه المنظومة فيما بعد، يجب أن تعرف ظروفها الأولية والشروط المحيطة بها معرفة خالية من أي خطأ وبشكل مفصل تمامًا. وبما أن الأنواء الجوية منظومة من هذه المنظومات، فإننا مهما حاولنا جمع المعلومات الحساسة والدقيقة حولها، فهناك مقدار زمني إن مرّ عليها فلا تكون لهذه المعلومات أي قيمة. ومن المستحيل أن يزيد هذا المقدار الزمني على بضعة أسابيع في أي حال من الأحوال. لذا فإننا نعلم الآن لماذا كان هطول الغيث -وهو جزء من الأنواء الجوية- في القرآن الكريم يعد من "المغيبات الخمس". من ثم فإننا نقول بأن الحقائق القرآنية لا تشيخ ولا تبلى بمرور الزمن، بل تتوضح أكثر، وإن تقدُّم العلم في المستقبل سيقدم لنا فهمًا أعمق لما جاء في القرآن الكريم. ■

(*) باحث في جامعة الفاتح / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

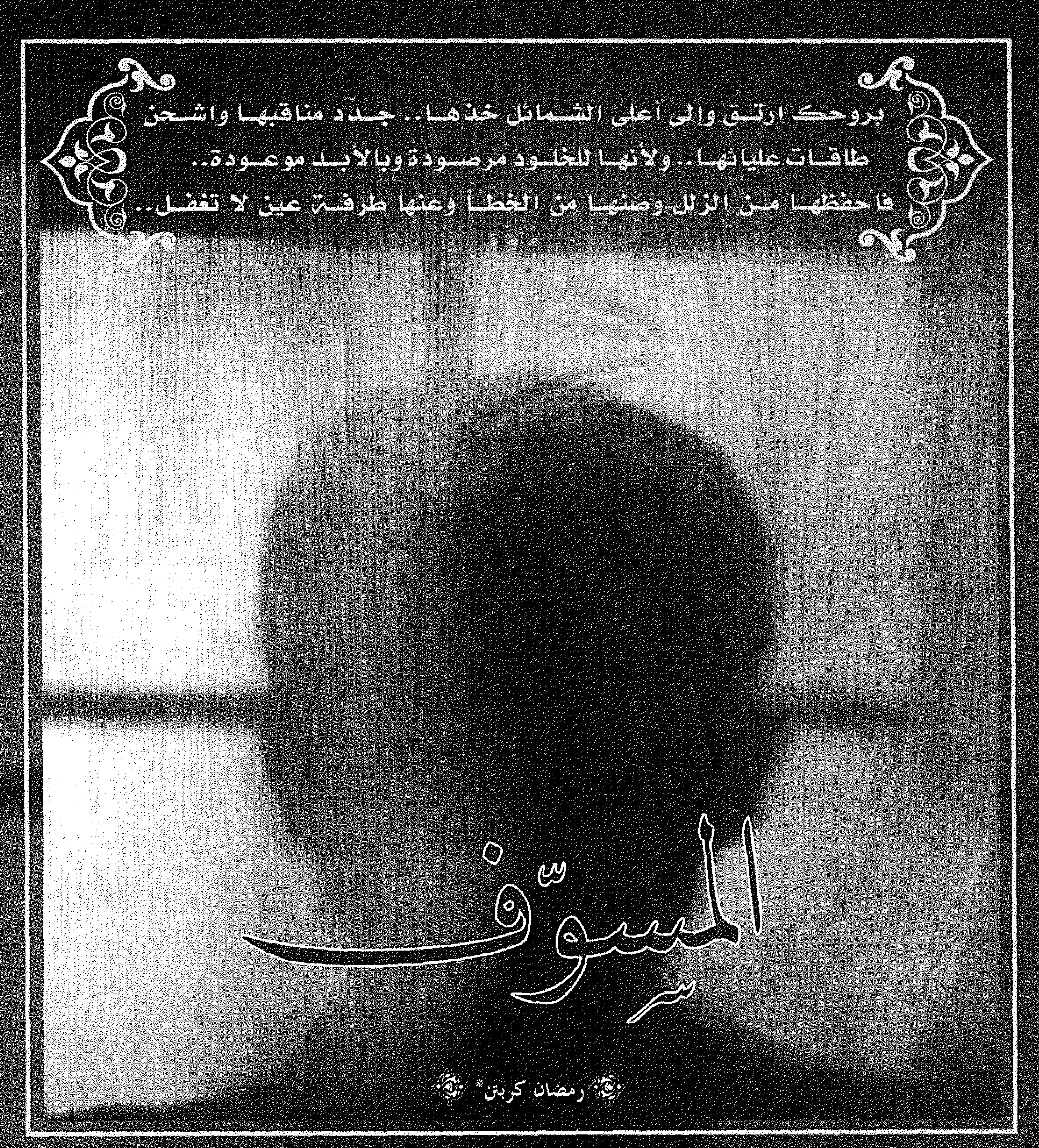
الهوامش

(1) فمثلا عندما تريد مراقبة حركة ألكترون فإنك لن تشاهد الألكترون إلا إذا أرسلت لها فوتوناً ضوئية، ولكن هذا الفوتون عندما يصطدم بالألكترون يغير من مكان وموضع الألكترون، فلا يمكن معرفة موضع الأكترون وعزمه الحركي معاً. (المترجم)

(2) مثلا يعد الكون نظاماً مغلقاً لأنه لا تأتيه طاقة من خارجه، أما الأرض فتعد نظاماً مفتوحاً لوصول طاقة الشمس إليها من الخارج. (المترجم)

(3) المنظومة الخطية: هي المنظومة التي يكون فيها المجهول من الدرجة الأولى، مثال؛ $x=y+5$، والمنظومة خير الخطية: هي المنظومة التي يكون فيها المجهول من الدرجة الثانية أو أكثر، مثال؛ $y=x^2+x+20$ أو $y^3+x^2=x+5$

(4) لأن هناك انتقال مستمر للحرارة في الكون من الأجسام الساخنة -كالشموس- إلى أجزاء أبرد منها. ويستمر هذا الانتقال حتى تتساوى درجة الحرارة في جميع أرجاء الكون، وهذا يعني موت الكون. (المترجم)



أكثر من مرة تثاءب، تمطّى، فرقع أصابع يديه، فرك عينيه.. وهمّ بالنهوض وترك الفراش.. غير أن شيئاً ما كان يمسك بتلابيبه ويمنعه من الحراك.. أوه.. هذه أمي.. أسمع وقع خطواتها على السلّم.. وكالعادة ستنهال عليّ توبيخاً وتوقر سمعي بمواعظها.. ما أطيبَ الفراش وما أطيب الدفء الذي يشيعه في نفسي وجسمي.. ها هي تقف قبالة سريري:

- انهض يا بنيّ.. ما هذا الكسل؟ نحن الآن في الظهيرة.. أنسيتَ أم أرى أنك تتناسى.. الامتحانات على الأبواب.. قم وذاكر دروسك يكفيك كسلاً...

- حسناً يا أمي استمعتُ إليكِ.. اتركيني الآن، دعيني أكمل نومي، وسأنهض بعد ذلك وأذاكر كما تريدين!..

عادة "التسويف" هذه صارت طابع حياته، لم يستطع نبذها وراء ظهره حتى وهو طالب جامعي، حيث كانت

سبباً في تأخره عن زملائه في كل شيء. وفي أحد الأيام رجاه أحد زملائه أن يصحبه إلى الجامع لأداء فريضة الجمعة، فوجئ بهذا الرجاء. وعلى الرغم من أنه يدرك أن "الموت" إذا جاء فلا يمكن أن يقول له: انتظر قليلاً، أو من فضلك تعالَ غداً حتى أستعدّ لاستقبالك.. فقد ردّ على زميله:

– اذهب أنت اليوم، ولكني أعدك أني سأباشر الصلاة في وقت لاحق وربما أصطحبتك وقتذاك إلى الجامع...

وغادر كليته بعد فشله سنتين متتاليتين، وهام على وجهه لا يدري ماذا يفعل، ولكن واحداً من زملائه اصطحبه إلى صديق له من رجال الأعمال ورجاه أن يلحقه بعمل ما ليعتاش منه.

مضت الأيام والسنون فإذا به يتزوج ويرزق بأطفال يقوم بتربيتهم ورعايتهم. وحين نصحه صديقه أن يزيد من اهتمامه بأطفاله ويوجههم الوجهة الحميدة تعلّل –كما هو شأنه دائماً– بأن أطفاله لا زالوا صغاراً وأنه سيفعل ذلك عندما يكبرون قليلاً. وعندما كبر هؤلاء الأطفال وباتت تؤرقهم أسئلة كثيرة لا يعرفون جواباً عنها، ويسألون ويلحون بالسؤال على والدهم، اكتشف الوالد نفسه، وعرف أنه لم يكن على دراية ليجيب أولاده عما يختلج في أذهانهم من إشكالات في الدين والحياة، وأنه خالي الوفاض لا يكاد يعرف شيئاً مما ينبغي أن يعرفه كلُّ أب للأخذ بأيدي أبنائه إلى الطريق المستقيم. لم يجد بداً من التردد على المكتبات والاستعانة ببعض الكتب التي يمكن أن تزوده بما هو يفتقر إليه من علم وثقافة. اختار بعضاً من هذه الكتب وأراد أن يدفع أثمانها، توقف قليلاً وتردد وقال في نفسه: "إن ما معي من النقود لا تغطي ثمن هذه الكتب، إذن سأشتريها عندما تتوفر لي النقود اللازمة"، ثم ترك الكتب ومضى لشأنه. وعندما توفرت له النقود لم يخطر بباله العودة إلى المكتبة واقتناء الكتب التي اختارها في المرة الأولى.

وبعد فترة طويلة، وبينما كان ذاهبا لعمله، شاهد متسولا معاقا، وفكر في إعطائه بعض النقود إلا أنه قال في نفسه: "أستطيع أن أعطيها له عند العودة".

وبينما كان يقترب من عمله سمع صوت المؤذن، وكان أحد أقربائه قد توفي.. اغتم من داخله وفكر قائلا: "إن الموت سوف يصيبني ذات يوم، والعمر يمر بسرعة.." ثم سأل نفسه: "ألم يحن الوقتُ بعدُ لدفع متطلبات روحي المعذبة؟".. كان رده بلا تردد: "نعم، ولكن المشاغل في هذه الفترة كثيرة للغاية، ليأت فصل الصيف ونتخفَّف من مشاغلنا عندها نفكر، كما أن أيام الله لا تنتهي"!

وبينما كان يمر في طريقه بين الأكواخ أثناء العودة من العمل شعر في داخله بمرارة، وتذكر سنوات المشقة، "يا إلهي! ما سبب تلك الدموع؟".. لم يتحمل ثقل المشاعر أكثر من ذلك، ففاضت عيناه بالدموع، وعندما نفدت طاقة تحمله جثا على ركبتيه واستمر في البكاء.

وتصدعت روحه بأحاسيس لا يمكن وصفها.. مسح عينيه وتمتم قائلا: "لعلي أستطيع تدوين هذه المشاعر والأحاسيس على الورق لأنها تشكل صفحة مهمة من تاريخ حياتي" ولكنه أردف يقول: "ذات يوم سأفعل ذلك".

كان يوما يساوي ألف شهر، ولكن عليه أن يعلم أنه لكي يتمكن من الوصول لذلك اليوم، يجب أن يعرف قدر كل يوم، وأن يبذل جهده في كل خطوة.

وذات يوم خرق صوت المؤذن سكون الحي، فأقبل الأصدقاء من كل مكان حتى امتلأ صحن المسجد بهم لحضور صلاة الجنازة. كان معروفاً لدى أهل الحي.. ذاك الرجل الذي فقد حياته أثناء ذهابه لعمله نتيجة ارتطامه بسيارة كان يقودها سائق مستهتر.. اصطفوا للصلاة عليه، وأثناء الصلاة فكر صديق له كان يحبه وينصحه دائما بأن لا يؤجل عمله لغد.. ذكر الرجل الذي لم يعط لأيامه أهمية وأمضاها بقوله دائما: "يوما ما".

وعندما بدأت الجماعة في التفرق اقترب صديقه من التابوت، ووضع يده عليه بالرغم من نظرات الإمام وهمس قائلا: "أواه يا صديقي ألم تكن تعلم أن الموت يطاردنا وأنْ لا مناص منه، وها أنت اليوم تلقاه كما سنلقاه نحن من بعدك".. ■

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية بتصرف: د. سمير زهران، أديب إبراهيم الدباغ.

في القلب يا حراء



عادل سعيد القدسي*

قبل أشهر من الآن أتتني "دعوة حراء". دعوة لحضور ندوة في صنعاء حول "حراء" المجلة – أعني- لا حراء الغار.. وأنا أنظر في تلك الدعوة الكريمة.. أقلبُ فيها تملكتني حينها مشاعر لذيذة، أحاسيس رائعة.. شدتني تلك المشاعر والأحاسيس من جميع أقطاري.. نقلتني على جناح الحب من دنياي التي أستقيم عليها.. دنيا الناس والدواب.. إلى دنيا غير الدنيا، إلى عالم غير العالم، من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقلت.

يا الله يا الله ما أُحيلاه ذلكم الانتقال، ذلكم التحليق.. من عالم بائس يائس تعيس مليء بالصراعات بالتناقضات، إلى عالم طاهر شفاف.. بلون الحب يتشكل، و"حراء" -إن كنتم لا تعلمون- مجلة ورقية مصقولة.. وبالألوان حملت هذا الاسم الرائع، وحملت معه شبهاً كبيراً به.. على نحو ما قيل: "لكل امرئ من اسمه نصيب".

ما إن تصافح عينيك أو تصافحها حتى تلتهمها.. و"من الغلاف للغلاف".. من الجلدة للجلدة كما تقولون..

المهم.. لبّيتُ "دعوة حراء".. وبين يدي "حراء" لا تكون إلاّ التلبية والحضور الفوري.. وسمعاً وطاعة يا "حراء"..

وجئت "حراء".. جئتها روحي قبل جسدي تسبقني، جئتُ وأفكار رأسي تزاحمني.. أيّ "حراء"!! من قلب الصحراء أنت، من عمق البادية ولدتِ، من وراء الذكريات والتاريخ تحضرين فتيةً قوية لكأنك ابنة لحظتك.. تجيئين بعد ألف وأربعمائة عام وتزيد من السنين أنيقةً متجددة تجيئين..

ومن أين تجيئين "يا حراء"؟.. من أين تجيئين؟..

من أيّ رحم مبارك تخرجين؟ إنه ذات الرحم المبارك الولود، رحم مكة والمدينة ودمشق وإسطنبول والقاهرة وإسلام أباد.. جئتُ أنا "حراء".. ملبياً دعوتها يحدوني شوق وشوق عارم نحو بلد الإسلام وقلعته الحصينة تركيا.. قطعتُ نحو "حراء" مئات الكيلومترات وكلّي رغبة لمعرفة هذا البلد الحبيب الذي انقطعتْ أو تقطعت به السبل نحو أهله وإخوانه، مثلما كان يحدوني للمجيء ويدفعني رغبتي كرجل فضولي أقصد إعلاميّ هو أن أدس أنفي -المعذرة- (أُريد قلمي) في شأن هذه المجلة الحبيبة إلى قلبي، وأن أجد منها "موطئ قلم" أشارك فيها كاتباً أو مراسلاً.. أو -حتى- محرراً ومن قلب المعركة "تركيا".. وهو حلمٌ -لو تعلمون- عزيز.. وما ذلك على الله بعزيز..

وفي ندوة "حراء".. برغم الطقس البارد.. برغم غربة الوجوه وتنائي الديار شعرتُ بدفء عجيب.. بحنان وحب..

"حراء" التي اقتحمت بنا فندق "خمسة نجوم" حولت ذلك الفندق بما فيه بكل ما فيه إلى نجوم لا تعد ولا تُحصى..

ما أُحيلاها تلك الوجوه المؤمنة التي جاءتنا من بلد الإيمان والخير والعطاء من تركيا ومن القاهرة ومن الجزائر..

ما أُحيلاها هذه المجلة تتقدم هذا الموكب الكريم ويقدم أبناؤها حفلة بلغة راقية.. لغة فصيحة تكاد تغيب عن عالمنا العربي القح!!

لكِ الله "حراء".. لكِ الحاضر وكل المستقبل.. ووعد نقطعه أن نكون مع "حراء".. نلبي دعوتها.. ننشر فكرتها.. وهو أقل الواجب.. وأضعف الإيمان.. ■

(*) كاتب صحفي من اليمن.

- غيوث هاطلة على جمرات الوجدان وانداء على نيران الاشواق.
- من أعظم ما سطره قلم على لوحة الوجود الانساني.
- المترجم بصدق عن هواتف الروح وانات الفؤاد.

مولانا

جلال الدين الرومي

أ.د. جيهان أوكويوجو



مركز التوزيع فرع القاهرة ... القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : 20222631551+ الهاتف الجوال : 201655523088+

www.daralnile.com





إن مَن عرف طريقه، وعرف الهدف الذي يتوجه إليه، وكان واثقاً من القوة التي يستند إليها.. استطاع أن يرقى إلى الذرى ويتجاوزها فيصل إلى الشاهقة مرات ومرات.. تصغر الأرض تحت أقدامه، وتَفتح السماواتُ صدرها لعرفانه، وتتحول العوائق إلى جسور تنقله إلى أهدافه..

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار
9 771306 187009 17
www.hiramagazine.com